سلّم سكاربا


المشروع الوطني للترجمة
٩
آداب عالمية

سلّم سكاربا

تأليف : آريين داينكر

ترجمة: د. إبراهيم إستنبولي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

العنوان الأصلي للكتاب

Лестница Скарпа

سلم سكاربا / تأليف آريين داينكر ؛ ترجمة إبراهيم إستنبولي. - دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧ .- ١٢٠ص؛ ٢٥ سم.
(سلسلة آداب عالمية ٩)

١ - ٨٣٩.٣١ د ا ي س ٢ - العنوان ٣ - داينكر
٤ - إستنبولي ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

«سـلّم سـكاريا»

إلى العربية

بقلم: أنيسة عبود

سلّم سكاريا ملحمة شعرية مُكتظّة بالدلالات والدهشة وبالمعاني الثرّة التي تُحوِّل تفاصيل المكان والبرهة المعيشة إلى فضاء يتعرج بين الماضي والحاضر والمستقبل لكأنَّه كُرة لا بداية لها ولا نهاية لِشدّة الولع بالمنمنمات اليومية وبالمشاعر الإنسانية عبر لغة شفيفة حيناً وساخرة جارحة حيناً آخر.

وحتى يمسك الشاعر بسلّم أهوائه ورؤيته للعالم والكون لا بدَّ من سلم يصله بين – الفوق والتحت... بين المرئي واللامرئي – بين الروح والجسد فكان سلّم سكاريا صلةَ الوصل بين ما هو محسوس وما هو غير محسوس... بين اليومي والرؤيوي.

إن سلم سكاريا كرمز يستدعي إلى الذهن صعوده إلى اللانهاية وامتشاقه النجوم للوصول إلى علوّ السؤال بحثاً عن جواب الوجود والعدم.

سلم سكاريا... قصائد من هولندا... من بلد السلالم والأدراج والثلج وزحمة الناس والأفكار والعتبات والنوافذ المتلاصقة بالسرّ والهمس الشفيف.

سلم سكاريا؟ للمرة الأولى أقرأ الشعر الهولندي... لذلك لا بد من شكر الدكتور إبراهيم إستنبولي الباحث والمترجم الذي ترجم هذه القصائد الجميلة المحملة بعوالم مختلفة عن عوالمنا وعن انشغالاتنا، مما أضفى الدهشة والمتعة والتجدد.

وإذا كانت ترجمة الشعر تفقده الكثير من أخيلته وموسيقاه ودهشته... إلا أن المترجم استطاع بمقدرته اللغوية أن ينقل إلينا روح القصيدة وسمو الأحاسيس عبر لغة أنيقة صافية... مما أنسانا أننا نقرأ شعراً مترجماً.

لقد آن لنا الخروج من تعلقنا بثقافة غربية، أنكلو - ساكسونية أو فرانكوفية، مسيطرة وطاغية على ثقافات العالم لأنَّ القويَّ يفرض ثقافته ونهجه الأدبي وطرائقه النقدية والجمالية... وللأسف، نحن نكرِّس هذا الطغيان مع أنّه ثمة دول وشعوب أخرى من بلدان مختلفة تمتلك آداباً راقية قد لا تكون أقلّ بهاءً وجدوى ولكنها محجوبة بظلال كثيفة أبعدتها عن الضوء والشهرة فابتعدنا عنها وعن ترجمتها والتفاعل معها.

لذلك أتمنى أن نقرا قريباً ترجمات من الأدب الإفريقي والصيني والهندي شرط ألا يخضع لقوانين العرض والطلب التي تسنّها دورُ النشر العربية.

سلم سكاريا... قصائد مفعمة بالجمال والأسرار تستحق فعلاً العناء الجميل للترجمة.

مرة جديدة أشكر المترجم الصديق الدكتور إبراهيم استنبولي الذي يضيف الجديد والمختلف دائماً إلى المكتبة العربية وإلى المتلقي العربي.

مقدمة الطبعة الروسية

السلّم – مكان اللقاءات والتصادمات، التعارف والذكريات، مكان للحبِّ والموت من منظور أربعة أبطال – المهندس المعماري الإيطالي سكارْبا، والمرأة ذات الوجه المنمّش والمرأة صاحبة الأقراط والمطرب الهندي. تتداعى حكاياتهم في لعبة النداء والمناداة كما لو أنهم رباعي من تيارات الوعي المتشابكة.

والشاعر هنا، على غرار مواطنه يوهان هايزينغه، يقدّم الإنسان اللعوب، Homo Ludens، كبديل لثقافة الاستهلاك عديمة الروح.

صعوداً على السلّم الذي يقود إلى ...

قمتُ برحلة من الأرض إلى السماء.
ساعدني الإله شو[١] بالنهوض،
وإله الشمس عزَّزني على السلّم من الجهتين،
أما النجوم التي لا تغيب أبداً، فقد أرشدتني إلى قمّة الطريق
وساعدتني لكي أتحاشى الهلاك.
من "كتاب الأموات" المصري.

السلّم في اللغة الهولندية – trap. ومَن يعرف كيف هو الـ trap في السفينة، يمكنه أنْ يتصوّر كيف يبدو السلّم في هولندا. ففي البيوت القديمة كما في الشقق الحديثة يلعب trap دورَ الجسر بين فوق وتحت.

ذو درجات ضيقة، يقف ملتصقاً بالحائط بشكل عمودي تقريباً.

وفي بلد يُعتبر الأعلى في أوروبا من حيث كثافة السكان، ليس أمراً غريباً ومثيراً للدهشة، أن يكون أي بيت بغض النظر عن ثمنه، ممطوطاً بطريقة شاقولية. ومن هنا يمكن اعتبار المملكة الهولندية بحق «مملكة السلالم ذات الدرجات شديد الإنحدار».

وقد قام المهندس المعماري الإيطالي كارلو سكارْبا بتصميم سلّم فائق الروعة يتناغم بصورة عضوية مع المظهر الداخلي تاريخياً للقصر الموجود في

---

(١) أحد آلهة التاسوع المقدّس، إله الهواء. تقول الأسطورة أنَّ الإله شو وأخته الإلهة تفنوت (Tefnut) وُلِدا من استمناء الإله أتوم. المترجم

متحف كاستلفيكّو في مدينة فيرونا؛ ولقد أثار تصميم هذا السلّم مشاعر الهولندي الذي أعتاد منذ الطفولة على رؤية السلالم.

ولعل هذه العوامل الثلاثة هي التي حسمت مكان اللقاء بين الإلهام والشاعر...

أوه يا سلّمي، أوه أيها السلّم!

كم أنت عزيز عليَّ مثل لحظة،

يطلق فيها الزمن سراحي.

أيمكنك أن تعبِّرَ عن هذا السلّم في أغنية؟

أن تُمجِّدَ مزاياه وأن تقلّده؟

بحيث يصبح القرع على الأسمنتِ

مقترناً مع اللون البرتقالي لبعض الفراشات،

ولكي تصدحَ في الصوت المحروم من الألم

رومانسيةُ جميع الشعوب وكلِّ العصور؟

أم أنه ثمة أغنية في كل درجة؟

آريين داينكر (سلّم سكارْبا)

آريين طويل القامة، له سحنةُ بحّارٍ هولندي من القرن السابع عشر. وجههُ جدّيٌّ، نادراً ما يبتسم. حين يمشي يحني رأسه قليلاً ليتفادى لفحات الهواء البحري البارد فيخبئه تحت قَبّة معطف جلدي قد يكون من صندوق الجدّ. بشعر طويل يتطاير مع الريح على إيقاع أطراف المعطف الطويلة... أهم شيء بالنسبة له هو أنه مستعد لأن يدافع في أي مكان وزمان عن الحرية: حرية الإبداع وحرية الفكر وحرية السلوك.

كتاب داينكِر الجديد هذا عبارة عن ملحمة شعرية من أربعة أجزاء، ديوان نصوص شعرية تترابط مع بعضها من خلال المكان والشخوص، أو ربما إنه مسرحية بلغة الشعر الحر؟ فالقارئ سوف يجد نفسه أمامَ خيار، بينما الشاعر يسعى كيلا يفرض قراراته.

إنهم أربعة أشخاص يلتقون على السلّم: امرأة ذات وجه منمّش، امرأة تلبس أقراطاً، مطرب هندي والمهندس المعماري سكارْبا. كما هو الحال في الأوراتوريا (الأوراتوريا – نوع من المؤلفات الموسيقية – المترجم) ، يُعطى الكلام لكل منهم، فيقصُّ كلٌّ واحد منهم للآخرين عن حياته وعن أشغاله، عما يشاهد ويشعر، عما يفكر وبما يرغب. يقوم المؤلف بوضع الملاحظات بدقة متناهية، شارحاً مَن يخاطب مَن – كما في مسرحية. وكل واحد من الشخوص يشاطر الآخرين تصورّه للسلّم، الذي يبدأ بالتدريج في لعب دور الشخصية الخامسة...

الحبُّ ملموسٌ أكثرَ من كأسِ نبيذ،

الحبُّ أكثر مواربةً من قمرٍ على السطح،

الحبُّ أكثر وقاحة من موظف.

سلّم(ك) يشبه القُبلةَ...

القبلة التي كنتُ قد رأيتُها في شبابي...

السلّم – قُبلة، السلّم – جسر، السلّم – فراق بين الدرجات. صورة السلّم متعددة المعاني كما هو الحال مع كل شيء في شعر آريين.

مجموعة من الدرجات التي تقود إلى عوالم أخرى، إلى طبقات أخرى من الواقع. إنها سلالم من نوع خاص...

وبما أنها تكون مغطاة بطاقة الحياة اليومية فإنها تصبح غير مرئية لكل واحد.

«وقد رأيتُ في المنام: ها هو سلّم يقف على الأرض، بينما أعلاه يلامس المساء؛ وقد راحت ملائكة الله تصعد وتهبط عليه»... (التكوين ٢- ٨ : ١٢ – ١٦)

أما عند داينكر فالأرواح هي التي تصعد وليست الملائكة. أرواح صامتة. ذلك أن ما هو زائل لا يقارن بما هو خالد. الأرواح تستشعر الأبدية... أما الزائلة فتستشعر الموت.

يروق لي التفكير
بأن الموتَ يلفُّ درجاتي.

يكتسب إبداع سكارْبا صبغةً جديدة مع كل صفحة من صفحات الكتاب. وفي نهاية الكتاب يصبح واضحاً أن السلّم – عبارة عن حياة مبرقشة وصاخبة، مليئة باللقاءات وبالفراقات. حيث أنَّ كلَّ ما يجري – هو صدفة، وغير ذي معنى في نهاية المطاف. إنه السلّم الذي «يكافح ضد الحقيقة». لكن في نفس الوقت يجري عليه التعرف على تلك الحقيقة بالذات...

ولصورة السلّم شجرة نسب فائقة في نموذجيتها، وكثيراً ما جذبت اهتمام الشعراء. وقد نجد نوعاً من التناص مع أفكار داينكر عند (الشاعر الروسي) مكسيميليان فولوشين[1]:

العالم – هو سلّم على درجاته
صعد الإنسان.
ونحن نحسُّ بما تركه
في طريقه من آثار.

---

(١) مكسيميليان الكساندروفيتش فولوشين شاعر روسي سوفياتي ١٨٧٧ – ١٩٣٢ احتضن الكثير من الشعراء والأدباء الروس الذين كانوا ملاحقين من قبل قوات البيض أو الحمر خلال سنوات الحرب الأهلية... وقد تحوّل بيته بناء على وصيته إلى بيت للأدباء السوفييت بعد وفاة الشاعر... المترجم

الحيوانات والنجوم – هي من نفايات البدن

الذي احترق في نار الإبداع:

جميعها لعبت في حينه

دور الحضيضِ لخدمة الإنسان،

وكل درجة كانت تعبيراً

عن تمرّدِ الروح المبدعة.

آريين داينكر يصوغ في نسخته مِن السلّم كرمزٍ للطريق، لوحةً متعددةَ الأصوات، مستخدماً من أجل ذلك تراكيب لفظية خاصة بالمؤلف، وصوراً مباغتة، مقارنات وجدانية واستعارات باهرة ومدهشة، تنسف توقعات القارئ كما لو أنها «ترونيل قابعٌ»[1] (آريين دانيكر. حكاية سرديات).

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب سكارْيا:

«لقد عضضت بأسناني على الصخور،

متنازلة بالتدريج عن السماء للنجوم.

وكان بلعومي يلتهب دائماً

بسبب الحَصَب الذي يتناثر من الفضاء.

شفاهي – مرنة وقاتمة اندهاشاً بالزمن.

صوتي بارد وممتلئ باليأس،

مثل البحر حين يبلغ الشاطئ...»

إنَّ استعارات ومقارنات المؤلف غيرُ مفهومة على الدوام من الوهلة الأولى. أحياناً تكون أشبهَ بالأحجية ويجب البحث عن مفتاح لها. إلا أنَّ عمل الفكر والمشاعر – صنعةٌ مُباركة. إنَّ الشعر عند داينكر مثل السباحة في نهر جبلي

---

(١) - قابع – كناية عن صوت الخنزير... المترجم

بارد: وخزات حادة من الوضوح، طراوة ذكريات جديدة وطاقة الوعي المتحرر من الرتابة والأنساق.

في البداية يكتب آريين قصائد نثرية (قصائد من الشعر الحر) فقط، مما يؤكد مرة أخرى على عشقه للحرية – الإنعتاق من الشكل. وهو لا يحب أن يكشف عن صوره وعن أساليبه. بل يختار لنفسه تقييدات الشكل التي ترتبط بالأعداد وبالأرقام. وهو على العموم كثيراً ما يلجأ وبدرجة مدهشة لاستخدام مفاهيم ومصطلحات رياضية... فعلى سبيل المثال، لا يوجد قافية ولا وزن في أشعاره، ولكن نصوص "سلّم سكارْبا" تتضمن شيفرة إيقاعية معقّدة – على شكل اختلاف عدد الأشطر في الأبيات. مثلاً: ١ ١ ٣ ٩ ٥ ٥ ٢ ٣ . ووحده المؤلف يدرك السرَّ في تأثير هذه الشيفرة (الكود) على المتلقي.

ثمة علاقة وشيجة بين الشعر والإبهام. فعند الشعراء الاسكندينافيين Skalds[١] كان يُعتبَر عثرةً تقنية كل ما هو واضح جداً للعيان. وقد كان الإغريق القدامى يلتزمون بالقاعدة التي تقول بضرورة أن تحمل كلمةُ الشاعر معنى صوفيّاً أو باطنياً. وجذور هذه المقولة تعود إلى قداسة الشعر بحد ذاته. ففي العهود القديمة كان الشعراء بمثابة أنبياء. لكن الزمن كفيل بأن يجرف كلَّ ما هو مُقدَّس عن الحياة والوعي. هكذا تتحول أحجية الحكاية الدينية (اللاهوتية) إلى حالة صوفية. ويتحوَّل الأدب، كما هو حاصل الآن – إلى أدب جماهيري.

لا ينتمي آريين داينكر بكل تأكيد إلى الثقافة الجماهيرية. إن الكتّاب من أمثاله وأيضاً حلقة قرّائهم يقفون، على الأرجح، بوجه عمليات إضفاء الغباوة على الثقافة وتحويلها إلى تجارة.

تتحد الصور والمفاهيم عند داينكر للوهلة الأولى في لوحات غريبة إلى أبعد حد وفي معان ملغزّة بطريقة ميئوس منها. فَعلامَ يراهن الشاعر؟ لماذا هو

---

(١) شعراء اسكندينافيون عاشوا وأبدعوا في القرون ٩ – ١٣ م وكانت أشعارهم من النوع الغنائي و تدور حول المديح أو القدح والذم – المترجم

واثق من أن القارئ لن يطبق الكتاب بطريقة نزقة ويلقي به جانباً لكي يجد عملاً أكثر بساطة بدلاً من أن يخوض في شقِّ دربه بواسطة تراكيب وأبيات مثيرة للحنق، تنبتُ أمامه مثل الغابة التي تظهر خلف الظهر بعد رمي المشط كما في تلك الحكاية الشعبية الروسية؟

داينكر يلهو. إنه يجعلك ترتبك بسهولة، وهو يقوم بذلك في كل مرة تلوح أمامه مثل هذه الفرصة. وهو يأتي بالكلمة ويضعها في سياق غير متوقع. فيبدأ القارئ بالتفكير، ثم يخلق الإحساس الداخلي تداعياً ما، لكن المباغتة لا تتأخر: المقطع التالي يحيل استنتاجات القارئ تلك إلى محصلة صفرية تماماً.

«كيف يمكن أن يرتبط كلٌّ هو مباغت بما هو وارد؟» – تطرح سؤالاً إحدى الشخصيات. غالباً ما يكون القارئ أيضاً مضطراً للبحث عن جواب على تلك الأحجية.

يوهان هايزينغا، شريك آريين في المواطنة، يعتقد أنَّ الثقافة هي وليدة اللهو: "ذاك، الذي يعتبر مع بول فاليري أنَّ الشعر هو لعب، وتحديداً لعب بالكلمات وباللغة، لا يلجأ إلى استعمال الاستعارة وإنما يلتقط المعنى العميق إلى أبعد حد لكلمة شعر بالذات».

داينكر يدعو قارئه للانضمام إلى هذه اللعبة. وهو يفعل ذلك بدون أي التفات لمصلحة أو لضرورة مادية. إنه ينتمي إلى أولئك الشعراء المعاصرين الذين اطلق عليهم يوهان هايزينغا لقب Homo Ludens – «الإنسان الذي يلهو». أي ذاك الذي يجنح إلى ما وراء حدود العالم المُدرك، والذي يجري تخليقه في سبيل البحث عن فكرة جديدة دفينة، مستترة لبعض الوقت. وبحيث أن قارئه يصبح شريكاً معه في اللعبة، ما يعوِّض عن جميع الصعاب الناجمة عن الحوار مع الشاعر.

ومع أن داينكر يتحاشى شرح أشعاره، إلا أنه في واقع الأمر يعتز بقرّائه ويحرص عليهم ويتواصل معهم من خلال أبطال قصائده، مثلما هو الحال حين يعلن:

ليستِ البساطة وحدها فقط هي التي ما تزال تُنشَد في أغنياتي،
بل وثمة أيضاً ذلك التعقيد الذي يعتبره البعضُ
مُبالغاً فيه ومُضطرباً من الناحية الفنية،
أو حين يعرّف جوهرَ الإبداع الشعري بلباقة باهرة وبطريقة رائعة:
تعدو الأفكار في الأزقّة الضيقة
وهي تحاول أن تنفض الكلمات عنها.
لاحظ، ها هنا أيضاً تتخلى الملكة عن ردائها
وتتركه في أيدي الفلاحين.

أو حين يجيب باسم المطرب الهندي على السؤال التقليدي الموجّه للشاعر عن القصائد:

لم أعرف يوماً قط ما الذي يجب أن تمجِّدَه الأغاني عندي،
أو كيف لي أن أشرح ماذا تمجِّد.

أما بخصوص الأساليب الفنية والجمالية عند داينكر فهي عبارة عن شكل من أشكال التكرار البلاغي، الإنشائي Anafora[1] الذي يحمل بنيان ودعامات النص... وإنه لمذهل كيف تستخدم في كل مرة وبشكل غير ملحوظ تلك الكلمات والتراكيب اللفظية، وكيف إنها تكتسب عمقاً أكبر فأكبر، لتصبح بالتدريج مُلْكيةً لشخصيات محددة ولتتحول إلى فكرة محورية بالنسبة لها. نحن نتعرف على هذه الشخصيات من خلال تلك الكلمات، حيث يكفُّ الشاعر في الفصل الثالث والرابع عن وضع علامات أو ملاحظات.

هذا السلّم يغنّي منذ الأزل.
هذا السلّم يغنّي مثل البشر الذين لم يتعلموا الغناء،

---

(١) Anafora الكلمة لاتينية وتعني شكلاً من أشكال التكرار الجمالي والبلاغي لأحرف أو لكلمات من سطرين متتاليين أو جملتين متقاربتين... المترجم

هذا السلّم يصدحُ مثل شجرة تكاد تكون بلا ظلٍّ،

هذا السلّم يصدح مثل رحّالة لا يبرح منزله أبداً.

مَن ذا الذي يصعد على الدرجات القليلة العدد لهذا السلّم؟

مَن ذا الذي يهبط على الدرجات القليلة لهذا السلّم؟

ليست الريح مَن يسود فوق هذا السلّم، بل الرغبة

بأن تخسر نفسك في التجليات الكثيرة للريح...

السرد هو الأسلوب الإنشائي الملفت للنظر عند آريين. فالسردُ عنده مرتبط دائماً بنقص في شيء ما، لأنه من المستحيل أن تسرد كلَّ شيء، خصوصاً حين لا تكون ميالاً للتفكير بواسطة المفاهيم. إلا أنه بفضل هذا الشح بالذات يمكن أنْ يجدَ شيءٌ ما محوريٌ فرصةً للتعبير عن نفسه، حين نلتقط فجأة: بالمناسبة، ثمة ما هو ناقص هنا... فإدراك حقيقة أنه ثمة نقص إنما يُخلَق لدينا بفضل إعادة السرد بالتحديد. وغالباً ما يكون تأثيره لا شعورياً، على سبيل المثال:

ومع ذلك، أنا أتساءل أحياناً،

لماذا يحدث أمرٌ ما بينما أمرٌ آخر لا يحدث،

وأنا أطرح على نفسي هذا السؤال أثناء ليالي الأرق،

كما أسأل أنا شخصياً بالذات علماء الفلك عن ذلك،

وأسأل الناس الذين يقفون معي في الطابور،

بغض النظر عن طريقة وقوفهم أو تسريحة شعرهم،

كما أسأل عن ذلك أيضاً بائعي وبائعات

المكسّرات والفواكه، والأقمشة،

وجميعَ أولئك الذين يعملون ببراعة.

أسأل عن ذلك

أحدَ ركّابِ الحافلة،

لأنني أؤمن بالمصادفة،

كما أسأل عن ذلك الحلاقين والمدلّكات، لأنهم خدومون!

أما الأرواح فلا، لا أسألها البتة عن شيء.

على الرغم من أن التداعيات تأخذ القارئ في اتجاهات مختلفة، فإنَّ داينكر يعود في كلِّ مرة إلى تلك الموتيفات التي تحدِّد شخصية أبطاله.

هكذا تصبح المرأة ذات الوجه المنمّش والمرأة صاحبة الأقراط، والمطرب الهندي وسكارْبا، يصبح هؤلاء بالفعل أربعَ معادلاتٍ لواقعٍ غنيٍّ إلى ما لا نهاية. وأما كلمة "ربما" في عنوان الجزء الثالث فهي تعبير عن حذر معين، لكي لا يبدو العنوان قطعياً أو حتمياً جداً. فالمؤلف يملك دوماً الحرية بأن يتابع بناء السلاسل اللاشعورية وأن ينتقل إلى معادلات أخرى، جديدة.

بالنسبة لعالم الرياضيات

نحن، ربما - مجرد أربع معادلات،

وبالنسبة للمهرّج

نحن، على الأكثر، دعابتان،

أما بالنسبة لتاجر السيارات

فنحن غياب للدعاية.

على الأرجح، هنا يكمن لغز داينكر - في تكرار السرد والمقارنة بين سياقات مُباغِتة، تصنع مع بعضها إحساساً جديداً "غير متاح". القمر فوق فيرونا، والقبعة الوحيدة، وأغنية الدرجات – كل هذا يتحد في لوحة ممتلئة بالرسوم وبالضجيج، بالأحاديث وبالألوان، في لوحة لحياةٍ ساحرة مليئة بالأضواء ومفعمة بالحيوية، بالقيظ وبالبرد القارص!

من جديد نعيد قراءة هذا النص...

«يوجد في هولندا أكثر من ٧٠٠ شاعر – يقول آريين- ويمكن للواحد منهم، عند الشروع بعمل جديد، أن يحصل على سلفة نقدية من صناديق حكومية محددة». لاشك أن هذا يحتاج لبعض الجهد، لكن وجود مثل هذه الشبكة قد تبعث على الأمل بأن اللعبة التي تخلق الثقافة سوف تستمر.

لا تنكري حياتك الخاصة مع ذلك.

لا تنكريها لا الآن ولا فيما بعد.

يمكن أنْ نشاهد قرنفلةً في ضفدع،

وأن نرى البطيخةَ عظاءةً.

أنَّ كراكي يختبئ في صرصور،

وأنَّ نبتةَ غارٍ تحمي سوسنة،

أن تعتني عنزةٌ بخنفسة،

وأنَّ دبّوراً يشير إلى برتقالة.

وأنَّ حمار قبّان[(١)] يخبِّئ شجرة بلوط.

لكن شجرة البلوط تجد نفسها في الريح.

فنحن – هم أولئك الذين ظلّوا أحياء بعد الجنون،

بعد الفوضى والكذب والاغتيالات.

هذا ما كتبه داينكر، وهكذا هو الواقع على الأرجح. ذلك أنَّ داينكر يفتِّش باستمرار عن أجوبة، ولكن ليست أجوبة عن أسئلة. إذ إنَّ العالمَ هائل جداً من أجل ذلك، وللعلم لا توجد أية صيغة، حتى الشعرية، قادرة حتى النهاية أن تعبِّر عن دهشتنا وإعجابنا بهذا العالم!

---

(١) أو قمل الخشب – نوع من الحشرات. وتسمى أيضاً الحشرة المُدرعّة... المترجم

نحن نقترب من السلّم مع ثلة حرس من الحوريات. تماثيل أبي الهول نائمة، وهي كما العادة تحرس سرّها الخاص. هذا السلّم هو العالم... أو إنَّ العالم – هو السلّم... نحن نقف على درجات مختلفة، نصعد ونهبط، نتحدّث ونصغي ونعيد... هكذا هي الحياة... هكذا هي اللعبة.

أنا أريد أن أقف على شاطئ البحر وأن أكتسب أعضاء الحس.

أريد أن أقف على الشاطئ وأن أعرف جميع الكلمات.

أن أقف على الشاطئ دون أن أستسلم.

أنا أريد أن أقف على شاطئ البحر وأن أغنّي بجسدي.

ل. نيفيلْسكايا[١]

---

(١) مخرج وكاتب سيناريو تلفزيوني... بعد أن تخرّجت من معهد السينما والإخراج – كلية المسرح، عملت ل. نيفيلسكايا في استوديوهات تلفزيونية وسينمائية كمخرجة وكسيناريست... وقد تركزت موضوعات أفلامها على تاريخ الفنون والفلسفة والآداب... وبحكم زياراتها الكثيرة إلى هولندا ظهر لديها شغف خاص بالشعر الهولندي وبعوالمه الجمالية... – المترجم.

سلّم سكاربا

سكارْبا(*) يخاطب الجميع:

«أهلاً وسهلاً في روحي
وأهلاً وسهلاً على سلّمي.
أيا سلّماً بدرجات قليلة!
أيا سلّما ودرجات تخيّلتُها بنفسي!
أيتها السيِّدة ذاتُ الوجه المنمش،
أيتها السيِّدة صاحبةُ الأقراط،
أيِّها المطرب الهنديُّ...
تحدّثوا بكلمات من زجاج،
تحدّثوا بكلمات من إسمنت،
تحدّثوا بكلمات من ماء!»

(*) المهندس المعماري ابن فينيسيا كارلو سكارْبا ١٩٠٦ – ١٩٧٨. وضع المخططات التي اعتمدت لبناء متحف قوالب طبق الأصل في بوسّانيو (تريفيزو)، ومتحف كوستِلفيكيو في مدينة فيرونا، مخزن ماركة "أوليفيتّي" في ساحة سان ماركو في فينيسيا، مدفن عائلة آل بريون في سان – فيتو دِ أتيفوله (تريفيزو)، مبنى البنك الشعبي في فيرونا. توفي سكارْبا في عام ١٩٧٨ على أثر حادث أليم أثناء رحلة له إلى اليابان وقد دفن في مقبرة سان- فيتو.

المرأة صاحبةُ الأقراط تخاطب المطرب الهنديَّ:

«أشكُّ أن تثيرَ حياتي اهتمامَك،

لأنها – تكرار،

استمرار لحيواتٍ أُخَر.

لديَّ أصابع نظيفة،

وأكثر نظافة منها – أظافري.

الكاحلان صنوبريا الشكل،

وأما الكعبان فيبدوان متعبيَن.

أنا متعطشّة لسماع صوتك".

المرأة ذات الوجه المنمش تخاطب المطرب الهندي:

" لأَيَّةِ غايةٍ قمتَ مع قلبِك الوضّاء

بزيارة هذه الأطلال؟

أنا – من عَبَدة القمر،

أُحبُّ الكثيرَ من الأشياء، لكن أكثر ما أحب القمر،

فهو يُتقن الخداع كما لا يستطيع أيُّ شيءٍ وأيٌّ كان أن يفعل.

هكذا، فالقمر مُتأدِّبٌ، مما يجعل الأشجار والأوراق تصمت،

هكذا، فالقمر منير بحيث ينام الأطفال.

ما الذي يمنعك من أن تخرج فتجلس على الأرض،

لكي تنتظر وتنتظر وتنتظر؟

أوه، أيها القمر، هيا اسخر من قلبي!

أوه، أيها القمر، هيا قم بخداع صوتي!

أوه، أيها القمر، يا قصراً بنوافذ أنيقة!

أوه، أيها القمر، يا مركباً بأشرعةٍ تَعِدُ بالكثير!

أوه، أيها القمر، دع الريح تنفخ في النار!»

المطرب الهندي يخاطب سكارْيا:

«الحبُّ ملموسٌ أكثرَ من كأس نبيذ،

الحبُّ ملتبسٌ أكثر من قمرٍ على السطح،

الحبُّ أكثرُ وقاحةً من موظّف.

السلّم عندك يُشبهُ قُبلةً...

قبلة، كنت قد رأيتها في شبابي...»

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب المرأة ذات الوجه المنمش:

"هيا اديري الأنف والرأس والطبعَ.

يروق لي أكثر أنْ أقفَ على هذه الدرْجة من تلك،

لكني كنت سأقول العكس لو كنتُ واقفةً على تلك الدرجة.

علامَ يثق أحدٌ ما بالقمر؟

فأنا لا أسمع كلامَ القمر،

بل أسمع جسدي بالذات.

فجسدي يتكلّم على هذه الدرْجة،

وهذه الدرْجة تصدح في جسدي".

المرأة ذات الوجه المنمش تخاطب المطرب الهندي:

"الأغاني العتيقة -

تُرغمُ المياهَ على الجريان بخفوت أكبر.

الطيور القديمة –

عيون قلبي.

الأعشاب القديمة

تُكسب شعري لمعاناً ذهبياً".

سكارْبا يخاطب الجميع:

«في إحدى المرات وجدتُ نفسي في مطبخٍ

تابعٍ لمزرعة تقع على ربوةٍ.

تذكرتُ أني شربتُ كثيراً،

أني استمعتُ لأصواتٍ وقحة،

وأني رحت أرقص مع رجال ونساء من القرية المجاورة،

كما رحتُ أتأملُ الأحذية والبنطلونات والفساتين،

كما رحتُ أتلذذ بالتهام شطائر كانت لا تزال ساخنة...

ومن جديد ثملتُ. ثم رحت أفكِّر:

أعرفُ كمْ يمكن أن يكونَ التمساحُ لطيفاً،

كم هو الفيلُ وحيدٌ وكمْ هو الذئب جبان...

مَدَّدوني على أرضيةٍ باردة،

سمحوا لي أن أشبع نوماً وأن أشاهد أحلاماً.

ثم نهضت ورحت أنظر عبر نافذة

يغطي نصفها تُلٌّ[١] جميل جداً.
نظرت لدقيقة، دقيقتين، ثلاث - أربع دقائق، وربما لربع ساعة،
وإذ فجأة أسمع خطوات.
خطوات واثقة، هادئة ومُعتبَرة!
وللحظة شعرتُ بحاجةٍ
لأن أسمعَ الصدى فقط،
طوال كلِّ ما تبقى من حياتي".

المطرب الهندي يخاطب المرأة ذات الوجه المنمش:
"هنا كانت تقف عاهرات يَمْتلكْنَ حكمةً،
هنا كان يقف موسيقيون،
نسوةٌ بأوداج منتفخة، مع شكاوى وإحساس بكبرياء خاص،
خبازون مع عجين من نثار الخشب،
رجال يَمدّون نساءهم بمواد التجميل،
رجال قساة، رجال كادوا أن يغرقوا في الحزن،
لأن القضيبَ أبى أن يلبي،
هنا كان يقف أطفال يئنّون، أطفال متفائلون،
خبراءُ تصميم، رسامون، مصورو أزياء الموضة،
منتصرون في حروب، فائزون في مباريات،
نساء فاتنات من أصول كريمة،
وإلى جانبهن فتيات قذرات،

---

(١) نوع من أقمشة الستائر - المترجم

رجالات دولة، ممثلون في السيرك، خبراءُ مكياج،
وأشخاصٌ ذوو نظرة مريبة..."

المرأة ذات الوجه المنمّش تتوجه إلى المطرب الهندي:
"بلا شك! وآخرون كثر!
لقد جئتُ إلى فيرونا
لكي أتمتّعَ بالتفرّج على هذا السلّم.
ثم وضعت جانباً دليل السائح
دون أن أتعمّق أكثر في كتب التاريخ.
كتفاي مصنوعتان من الكريستال،
أفكاري – عروق في شجرة جوز،
وأما عشيقي فأنا أودُّ أنْ أَمُدَّ له لساني
جواباً على كلماته.
أنا هنا لكي أستمتع بهذا السلّم،
أنا هنا كي أختفي".

سكارْبا يتوجه إلى المرأة ذات الوجه المنمّش:

"كم هو جميل حذاؤك!
أهو رُسُل القمر؟
على كل حال، إنه يدق بطريقة حميمية مثل ساعة صغيرة...
لو كنت أريد أن أمنح سلّمي اسماً
لكنتُ فكرتُ بك.

يصعب عليَّ ألاَّ أنظر إليكِ كعنصر فيه
ويصعب عليَّ أيضاً ألاَّ أواسيك".

المرأة ذات الوجه المنمّش تخاطب سكارْبا:
"أنت، يا سكاربا، تتكلم مثل ماجنٍ.
كلُّ واحد منهم يحمل سكيناً في جيبه، وهذا يعني – أنك كذلك.
أليس في ذلك يكمن منطق الموت،
الذي يهبط على هذا السلّم
لكي يتمدد قرب النهر،
حيث تتمايل أغصان الأشجار،
بينما البطات والبجعات ترحِّب بأشباهها؟"

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب الجميع:
"ما مِن رغباتٍ، كما يبدو، عند الساعات.
والجدران، كما يبدو، لا أصوات لها.
والنجوم، كما يبدو، لا ضرورة لها.
تحدّثتُ، وأنا في طريقي إلى هنا،
مع رجل كان مستلقياً تحت سيارته.
"الحياة مقدّسة" – قال.
"كيف لي أن أعرف الحياة؟" – سألته.
"الحياة مقدّسة" – كرَّر هو.
كما لو أن جسده يساوي جسدي!
كما لو أنَّ بطنه ممتلئ بالأقراط كما هو بطني!"

سكاربا يخاطب المطرب الهندي:

"أيمكنك أن تعبِّرَ عن هذا السلّم في أغنية؟

أنْ تُمجِّدَ مزاياه وأن تقلِّده؟

بحيث يصبح القرعُ على الأسمنت

مُقترناً مع اللون البرتقالي لبعض الفراشات،

ولكي تصدحَ في الصوت المحروم من الألم

رومانسيةُ جميع الشعوب وكل العصور؟

أم أنه ثمة أغنية في كل درْجة؟"

المطرب الهندي يخاطب سكارْبا:

"أنا أمجِّد قصص الأمراء والأميرات،

وعلاقات العشق المحرّمة من السماء،

من دون تعليقات،

لأنَّ حياتي عزيزة عليَّ.

فهناك، حيث البحر هادئ،

يتمدد جنود مُنهَكون.

ألم أحلم أنا، يا ترى، بالحنان؟

ألم أحلم أنا، يا ترى، بالرقّة؟

كانت أصابع بعض الناس وأياديهم تقوم بإشارات متناقضة من حولي.

ليستِ البساطة وحدها فقط هي التي ما تزال تُنشَد في أغنياتي،

بل وثمة أيضاً ذلك التعقيد الذي يعتبره البعضُ

مُبالغاً فيه ومُضطرباً من الناحية الفنية،

المرأة صاحبة الأقراط تتوجه إلى المرأة ذات الوجه المنمّش:

" يَجزمُ البعضُ بأنَّ الأرضَ هي أمّي،
يجزْم البعض بأنَّ البحرَ هو أمّي،
يجزم البعض بأن الجدول هو أمّي،
يجزم البعض بأن البيت هو أمّي.
أي واحد من هذه التأكيدات أكثر إغراء؟
أي جَزْمٍ سوف أستطيع أن أجمعَ
يوماً بعد يوم بعد يوم بعد يوم بعد يوم؟"

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب سكاريا:

"هل تسمع ذلك؟
ما الذي تمثّله هذه الأطلال بذاتها؟
يصعب تقدير أهمية توزّعها،
لكن ما قيمتها من دون هذا الترتيب؟
ما قيمتها من دون مجد فيرونا؟
مُجرَّدُ دعارةٍ لغوية لا أكثر".

المطرب الهندي يخاطب المرأة ذات الوجه المنمّش:

"كنتُ أتمنى أنْ أغنّي لكِ
على ضفافِ نهرٍ سريع الجريان،
كي تندمجَ في قلبك مع رغبة صادقة
تلك الرفرفات البطيئة لجناحَي طيرٍ جارح.

أَيرغبُ واحدٌ أكثر من الآخر؟

أيفهَمُ واحد أكثر من الآخر؟

أَيُنجزُ واحد أكثر من الآخر؟

كم هو باردٌ هذا السلّم!

أنتنفس نحن هنا، كبشر استطاعوا

أن يستغنوا عنه في الماضي؟

ربما، رجال ونساء كانوا يحلمون بشيء ما؟

رجال ونساء حيث لا وجودَ لكلمة"حلم" في قاموسهم؟

فتيان وفتيات يلهثون من المرض،

فتيان وفتيات جعلهم الغيظُ يتسمّرون،

بشفاههم وآذانهم ووجناتهم السحرية،

مع أزرارٍ جميلة وكشكشٍ والفراغ؟

أنا ما عرفتُ يوماً بدقة ما يجب أن تمجِّد أغنياتي،

أو كيف لي أن أشرح ما تمجِّده".

سكاربا يخاطب الجميع:

"أوه، يا سلّمي، أوه أيها السلّم!

أنتَ عزيز عليَّ كلحظة

يطلق الزمن فيها سراحي ".

المطرب الهندي يتوجه إلى المرأة صاحبة الأقراط:

"لا تنكري حياتك الخاصة مع ذلك.

لا تنكريها لا الآن ولا فيما بعد.

يمكن أن نشاهد قرنفلةً في ضفدع،
وأن نرى البطيخةَ عظاءةً.
أن يختبئَ كراكي في صرصور،
وأنَّ نبتةَ غارٍ تحمي سوسنة،
أن تعتني عنزةٌ بخنفسة،
وأنَّ دبّوراً يشير إلى برتقالة.
وأنَّ حمار قبّان يخبِّئ شجرةَ بلوط.
لكن شجرة البلوط تَجِدُ نفسها في الريح.
فنحن – هم أولئك الذين ظلّوا أحياء بعد الجنون،
بعد الفوضى والكذب والاغتيالات.

سكاريا يخاطب الجميع:
"أودّ لو أعرف،
إنْ كنتُ سآخذ ذكرى عن إبداعي
إلى جزيرةٍ غير مأهولة.
ها – ها! أظن فقط في حال فُرِضَ عليَّ أن أختار!
كان بمقدور الدرجات أن تستنزفَ الأسماكَ،
ولكانت هذه أضاءت جميع ألوانها".

المطرب الهندي يخاطب سكاريا:
" دعِ الأرواحَ تتكهن!
حينئذ سوف أُنشِد حكاياتِها!"

المرأة صاحبة الأقراط تتوجه إلى سكاربا:

"ومن ناحيتي! من ناحيتي!

لتتكلم أرواح الأحياء،

وسيخرس الأمواتُ، أخيراً!"

المرأةُ صاحبةُ الأقراط تخاطب المطربَ الهندي:

"الأرواح دوماً مُلوّنة، لا يمكن أن تكون بلا لونٍ إطلاقاً،

وجميع الأرواح مُضطرَّة لأنْ تستدعي الحزنَ.

بعض الأرواح تحثُّ على الحنق،

بينما أخرى تستثير الحنان.

لكن الأرواحَ جميعها مُضطرةٌ لأن تستدعي الحزنَ.

ولأنَّ حياتي حقيرة إلى هذا الحد ولا قيمة لها،

فقد أهديتُ قلبي لأرواحِ

أولئك الذين يسلبونني القدرةَ على إبصار حياتي،

الذين يقومون بإثارتي من الداخل،

ويقومون بضبطي من الخارج.

إلا أنَّ جميع الأرواح مضطرة لأن تستدعي الحزنَ.

الأحمر يصبح أكثرَ حُمرة، فأكثرَ حمرة، ثم أكثرَ وأكثرَ حمرة،

والأصفر، أكثر اصفراراً، فأكثر وأكثر، ثم أكثر اصفراراً،

ليس مهماً أين يذهبون

أو من أين جاءوا.

أنا تلصصتُ على الكثير مما عند الموت

وسمعتُ كيف راح يهمسُ برغباته الأكثرَ شناعة.

هل أنتم على معرفة بأرواح المكسرات من الكاجو وحبات الأرزِ؟
أرواح النسوةِ مع أطفالهن العشرة،
وهم يتزاحمون قرب النار؟
نعم، بكل تأكيد، جميع الأرواح مضطرة لأن تستدعي الحزنَ.
بعضها يذهب إلى معامل علبِ الكونسروة،
وبعضها عاد للتو بعد غروب الشمس،
والبعض الآخر منها يتألم بكلماته على السلّم".

المرأة ذات الوجه المنمّش تخاطب سكاريا:
"درجاتُ سلّمك بأكملها مُشْبعةٌ حقاً بالدم،
أقصد بكل الكلمات التي تفوح برائحة الدم.
أنا سعيدةٌ بضوء القمر قط.
القلق هو عبارة عن دَمٍ
ينْقطُ على الكتفين،
والظلُّ في عينيك – عبارة عن دم
يغلي في قلبي.
أنت وجزيرتك غير المأهولة!
أنت وأطلالك - درجات سلّمك!
فالطيور التي أسمح لها بالحياة، آه، آه، تتسكع في الدمِ
وهي تتمنى، بكل تأكيد، أن تجدَ نهاية للأحاديث
إنك تقف هنا، إنك تقف هناك، وبإمكاني أن ألمسك.
القمر يلاطفُ فيرونا، القمر يدلِّلُ فيرونا!
يمكنني أنْ ألمسَك، لكني لا أشتهيك".

سكاريا يخاطب المرأة صاحبة الأقراط:

"حدّثيني أكثرَ عن هذا السلّم.
حدّثيني عمّا أنا صنعت بلا كتمان.
اطلقي عليَّ شياطينك!
اسمحي لي أنْ أُغرَمَ بشياطينك!
اسمحي لي أنْ أعشقَ
صوتك، وشفتيك، وحنجرتك، وأسنانك!"

المرأةُ صاحبة الأقراط تُخاطب سكاريا:

"أسناني قضمت الصخور،
التي تنازلت بالتدريج عن السماء للنجوم.
بلعومي كان يلتهب دائماً
بسبب الحَصَب الذي يتناثر من الفضاء.
شفتاي – مرنة وقاتمة
اندهاشاً بالزمن.
صوتي بارد ومفعم بالمرارة،
كبحر بَلَغَ اليابسة.
وأما الأرواح التي تُخيِّب آمالي مُرغمَةً،
فإنها تتعفّن في رأسي كما الثقوب.
أوه، يا فوهات البراكين الممتلئة حزناً!
أوه، يا بداية ونهاية السلّم!
أوه، أيتها الأفكار عن الانتقام وعن العجز!

أوه، أيتها الأغاني البديعة في البعيد!"

سكارْبا يخاطب المرأة ذات الوجه المنمّش:

"ليندلق دَمُكِ على بدلتي!

ليملأ حذائي

دمُ جميع الأشياء الصغيرة في العالم!

فليواجه الحقيقةَ هذا السلّم،

الممنوح للأوقات التي لا ترحم من السنة!

ليختلط دم أهالي القرى الجبلية

مع دماء رئيس بلدية "متروبول"

البهيّة، لكنها الباردة!

لا معنى - لما قمت بتصميمه.

عقيم ذاك الذي قمتُ بتصميمه.

فليتثقّلِ الدمُ في كأسِ أفكاري!

دعيني أُجرِّب دمَ قمركِ

وليبقَ هذا السلّم خالداً!"

المطربُ الهندي يخاطب المرأةَ صاحبةَ الأقراط:

"ولكن، ما الذي سوف يشفي

جِراحَ الأمراء والأميرات،

الذين أمجِّد مغامراتهم الغرامية،

سوى التقاليد؟

أيمكن للشمس أن تتصدى لغضب أعضاء السلالة؟

أيمكن للريح أن تفرض عهداً بالصمت على المستشارين
مع تهكماتهم؟
هل بمقدور الماء أن يزيل الشيخوخة عن الوجنات الفتية؟"

المرأة ذات الوجه المنمّش تخاطب المرأة صاحبة الأقراط:
"سوف أحاول أن أتحاشى الأرواح الحيَّة التي تتحدثين عنها.
فتلك المُخادِعة منها عديمة الفائدة،
بالرغم من أنها تَقبضُ بأيديها على شُعلةٍ آمنة!
الأطفالُ الذين دفنتهم، والعجائز،
وأربابُ العائلات بطقوسها الخاصة،
ورجالٌ قادتهم مهنتهم إلى الفقر فقط،
ورجال يشربون العصير فقط منذ الصباح وحتى حلول الليل،
ونساء رحن يتطلعن إليَّ بتعاطف،
أناس مُغرَمون، وحكماء، وطاهرون، ومسعورون،
وأناسٌ هادئون لهم آذان مقشرة،
وأناس متعجرفون مع اسوداد حول العينين،
وأيضاً البخلاء، والأنذال، القساة
والأبرياء – الذين ساعدتُ في دفنهم،
يسخرون مني الواحد تلو الآخر،
يزحفون إلى داخل أُذُني، يحرقون، يفجّرون،
يحملون السعادة إليَّ، ذلك لأني سعيدة
بالذكريات عن الواقع".

المطرب الهندي يخاطب الجميع:

"عاشت في يومٍ من الأيام فراشةٌ زرقاء.

كانت الفراشة تطيرُ فوق الحقل،

حيث كانت امرأتان تنشران "الملابس الداخلية"،

لم تعرِ المرأتان اهتماماً للفراشة.

عاش يوماً دبّور أسود.

كان الدبّور يطير فوق الحقل،

حيث كانت امرأتان تجففان الملابس الداخلية،

لم تعر المرأتان اهتماماً للدبّور.

عاش يوماً ما يعسوبٌ شفّاف.

كان اليعسوب يطير فوق الحقل،

حيث كانت امرأتان تجففان الملابس الداخلية.

لم تعر المرأتان اهتماما لليعسوب.

يا لها من ذكريات قاسية**!**"

المرأة ذات الوجه المنمّش تخاطب سكاريا:

"إشارات صغيرة، إيماءات ذات معنى،

إيماءات غير مشاكسة،

إيماءات تعكس توتُّرَ اللحظة،

إيماءات بَدَتْ كما لو أنها تَصْرِفُ عن الإشارات،

التي لا تحمل، على العموم، أيَّ معنى...

سبق وأقيمت على سلّمك احتفالات

على شرف عيدِ ميلادِ شابٍّ من طوكيو،

وعلى شرف عيد ميلاد راهبة من بوربا[1]،
وعلى شرف ميلاد كلبٍ من توليدو،
وعلى شرف زواج ناجح،
وعلى شرف زواج فاشل،
ولأجل فتاة بعشرةِ أصابع،
ومن أجل فتاة بقدميَن،
ولأجل فتاة بأنف!
لقد قُدَّ سلّمُك بحركات صغيرة
من الموت العارم..."

سكاربا يخاطب المرأة صاحبة الأقراط:
"تَخيِّلي،
لقد أقنعوني بأن أعلِّق لوحات،
لوحات وصور ورسومات كئيبة.
مناظر طبيعية للبحر، صورَ ديكورات لمقاهي ومطاعم،
بورتريهات، صورَ وجنات شاحبة وعيون باهتة،
فساتين وسراويل وقمصان،
قفازات إلى جانب صحن فطائر،
مناظر طبيعية لكثبان، واد ممتلئ بنور الشمس،
حيث يكدح إنسانٌ ووحشٌ، وهما يغنيان،

---

(١) بوربا – العاصمة الإدارية لإقليم إيفورا البرتغالي المشهور بصناعة النبيذ. وقد قام орден Servas de Cristo في القرن الثاني عشر الميلادي ببناء دير في بوربا.

نتوءات برتقالية اللون لتلال، وأزقة بنفسجية،
صورَ أشداقٍ راضيةٍ لعساكر وأشباه عساكر لا مباليين،
وهي تنادي بالإخلاص،
حديث علماء تمّت تحليتهم بالسكّر،
ماتّرهورن(١)، بوروبودور(٢)، بومبي(٣)،
بيوت مُهدمَّة، تصاميم لزرائب، شظايا أصص فخارية،
برج إيفل، حدائق يابانية، دونالد داك٤،
الإنسان الثلجي، والأسد وهو يمزّق ظبياً أفريقياً،
صورَ أسرابٍ مذعورة من الذباب الطنّان، منازل من خشب، وقرود،
باحثين، عمال إنتاج، البرج الأسود...
لكن هذا السلّم ليس منظاراً
ولا أداة للتحليل الذاتي.
ليس درباً إلى الحياة الآخرة
ولا رصيفاً للتنزّهِ في الوقت الحاضر.
إني أحلم ببحرةِ ماءٍ صغيرةٍ مَنسيّة،
لا ترغب بأن تُجاوِبَ الضفدع".

---

(١) ماتّرهورن Matterhorn – الجبل الأكثر جمالاً من جبال الألب.

(٢) Borobudur – جِرن بوذا في جنوب جزيرة يافا. عبارة عن نصب فريد للفن الإندونيسي في القرون الوسطى.

(٣) مدينة رومانية كان يعيش فيها حوالي عشرين ألأف نسمة ولم يبقَ منها سوى آثارها القديمة... فحسب الأسطورة أنها عوقبت بسبب الفحش الذي كانت غارقة فيه... تقع على سفح جبل بركان فيزوف بالقرب من خليج نابولي في إيطاليا. المترجم

(٤) دونالد داك – بطل سلسلة أفلام "والت ديزني" الكرتونية للأطفال.

المطرب الهندي يخاطب الجميع:

" هل تعرفون حكاية الضفدع،

الذي زار القمر وأراد أن يبقى هناك؟

وحكاية الفأر الذي لم يجد طعاماً كافياً،

لكي يزيد في وزنه إلى الحد المُحبّبِ له؟

والأفعى التي زحفت ليلاً عبر النافذة،

لكي تشرب كلَّ الحليب من صدر الأم الشابة؟

وحكاية القمر،

الذي راح يتباهى بتحولاته

وقد قرر أن يسبح في البحرة؟

إنَّ طيف التاريخ

يسبِّبُ تموَّجاً خفيفاً على سطح الماء النظيف.

ليس ثمة مِن مخلوق بِلا لغز مثيرٍ للضحك.

وما من شجرةٍ لا تلامس جذورُها الأرض".

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب المرأة ذات الوجه المُنمّش:

"تلك الأرواح التي تزور هذا السلّم،

تكون حاضرةً عند ولادة العالَم".

المرأة ذات الوجه المنمش تخاطب المرأة صاحبة الأقراط:

"أولئك الأموات الذين زاروا هذا السلّم،

إنما التقوا هنا مع سبب موتهم".

سكارْبا يخاطب المرأة صاحبة الأقراط:
"لا علاقة للعنب الذي تم تناوله
على هذا السلّم بظهور العالم".

سكارْبا يخاطب المرأة ذات الوجه المنمش:
"الأموات الذين أكلوا عنباً على هذا السلّم
بصقوا النوى بالقرب من النهر".

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب المطرب الهندي:
"الملايين مسحورون بكَ، الملايين تَثِقُ بكَ.
لماذا يعجز سكارْبا عن تقبّل حبّي؟"

سكارْبا يخاطب المرأة ذات الوجه المنمّش:
"يروق لي أن أتخيَّلَ
كما لو أن الموتَ يخيِّمُ على درجات سلّمي"

المطرب الهندي يخاطب المرأة صاحبة الأقراط:
"لا تحزني ولا ترتعبي.
الأرواح تتحدث مع مَن يتكلم".

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب سكارْبا:
"سِلّمُكَ يساعد الناس،
ينقلهم من لحظة إلى لحظةٍ أخرى،

من المطبخ إلى الجنينة، من الآن إلى فيما بعد.
لا تسترقِ النظرَ إلى حدقتيَّ،
ولا تنظرْ إلى ظلال التعب تحت عينيَّ،
لأنك لن ترى سوى علامات الماضي.
سلّمُك يربط بين الصيف والخريف،
يفصل الشتاءَ عن الربيع، ويصفِّر، مثل الريح،
كمالك شرعي له.
نظير السمْتِ عند سلّمك مظلمٌ تماماً،
مثلما هو سمتْهُ، وقديم بنفس درجة قِدمه تماماً.
يبدو لي أني أعرف لماذا تسوط الريح
ممتلكاتها بالنوايا الحسنة.
بهذه الطريقة وحدها فقط
يمكن لهذا السلّم أن يعبِّر عن الحزن،
الذي تركته هنا روحٌ من الأرواح
وأن يُحرِّرَه".

المطرب الهندي يخاطب المرأة ذات الوجه المنمّش:
"لا تحزني ولا ترتعبي.
مَن يتكلّم عن الأموات كما لو أنهم أحياء،
لا يُقدِّم، على وجه التحديد، سوى حقائق كاذبة.
أنتِ – زينةُ العالّم،
زينةٌ ثمينة، مثلما هو كلٌّ شيء بديهي".

المطرب الهندي يخاطب سكارْبا:

"أنتَ أيضاً – زينة لكن بالمعنى الأخلاقي".

سكارْبا يخاطب المرأة ذات الوجه المنمّش:

"لم أخشَ الموتَ في يوم من الأيام بتاتاً.

سلّمي، برغم أنه مُلكٌ للريح،

لا علمَ له لا بالخير ولا بالشر ولا بما شابه.

لا يعرف الغيرة، لا يعرف الحرية،

ولم يخشَ موتي أبداً.

وهو لن يتفجّع على رحيلي،

ولن يفكِّر بتصرفاتي.

إنَّ أبسط شيءٍ من بين كل ما أنجزتُه –

هو تأمّل هذا السلّم.

فالمادة لن تلجأ للاحتجاج على الإطلاق..."

المرأة صاحبة الأقراط تخاطب المرأة ذات الوجه المنمَش:

"هل مارستِ الحبَّ مع مؤمن؟

هل مارستِ الحبَّ مع قدِّيس؟

أما أنا فقد أحببتُ الرجال الخبازين،

الرجال الذين يرعون قطعانهم في الجبال،

الرجال الذين يدرسون النجوم والكواكب،

الرجال الذين يقومون بتحسين نوعية الطرق،

الرجال الذين يواجهون أصحاب المقامات الكاذبة،

الرجال الذين يسمعون أصوات البحر،
الرجال الذين يجمعون ويرحّلون القمامة،
الرجال الذين يعشقونني لِقاءَ نقود...
فأنا دائماً كنتُ أشعر بجسدي
كما لو أنه مستودعٌ لكلِّ أنواع الأرواح.
ما يدعو للدهشة وللحزن أكثر
مما هو بريقُ الضرورة...
هل شعرتِ بأنك تلمسين جلدك بالذات
بينما أنت تفكرين بالأرواح؟"

المرأة ذات الوجه المنمّش تخاطب الجميع:
"أودُّ لو أحيا على هذه الدرْجات.
وأن أقوم بطلاء أظافري، وأن أشبك شعري.
أن أغسل الثياب، وأنظِّف أسناني.
أن أمسحَ وجنتيَّ وأن أطلي شفتي.
لكان مظهري شبيهاً بعالمي الداخلي تماماً.
ولكان القمر جاء إليَّ ليكذب
بشأن الوظائف المخاتلة للزمن.
لكنتُ أصبحتُ غير مرئية، ولا يمكن القبض عليَّ...
ولكانت أعضاء الحسِّ عند الموت
راحت تُراقب كيف إنَّ هذا السلّم
يُحبّني".

المطرب الهندي يخاطب المرأة صاحبة الأقراط:

"هذا السلّم يَصدح منذ الأزل.

هذا السلّم يصدح مثل الناس الذين لم يتعلموا الغناء،

هذا السلّم يصدح مِثلَ شجرةٍ تكاد تكون بلا ظلٍّ،

هذا السلّم يصدح مثل رحّالة لا يبرح منزله أبداً.

مَن ذا الذي يصعد على الدرّجات قليلة العدد لهذا السلّم،

مَن ذا الذي يهبط على بعض الدرجات القليلة لهذا السلّم؟

ليست الريح مَن يسودُ على هذا السلّم، بل الرغبة

بأن تخسرَ نفسكَ في التجليات الكثيرة للريح.

لقد احتلَّ الأمراء والأميرات نصف العالم،

وأما النصف الآخر فقد أضاعوه بفعل الصدفة.

إنهم يتسكعون في كل مكان في أثواب خيالية،

يتسكع المستقبل في أطباقهم الفاخرة،

وفي رؤوسهم المتلألئة تتمايل غيلان مرعبة.

لقد كنتُ في شبابي شاهداً على ذلك..."

سكارْيا يخاطب المطرب الهندي:

"هل سلّمي هو قبلةٌ حقّاً؟"

أغاني من الألزاس[1]

"كنتُ فتاةً صغيرة.

وكان أبي يبتسم، كثيراً ما كان يبتسم.

وحين جرّبتُ البيرةَ لأوّلِ مرّةٍ،

ابتسمتْ أمي أيضاً،

وقد حصل ذلك في يوم أحد في مطعم صيني،

حيث كان يجلس لاعبو كرة القدم مع زوجاتهم.

رحتُ أنتظر أيام الآحاد على مضض،

إذ كنتُ أذهب لكي أتفرّج على أبي.

أعطوني كيس تشيبس وبعض الملح كلّاً على حدة.

---

(١) منطقة ألزاس تقع في الناحية الشمالية الشرقية من فرنسا، يحيط بها من ناحية جبل فيزوف ومن ناحية ثانية – نهر الراين ومنطقة شفارتس فالد الألمانية. هناك ستة أنهار تتبع من منطقة فيزوف، تخترق كروم العنب وتصب في نهر إيل. غالباً ما تقارن خمور ألزاس بالخمور الألمانية مع أنها حسب الخبراء أقرب ما تكون للنبيذ النمساوي المز. تحيط كروم العنب في ألزاس بمدن قديمة تعود للقرون الوسطى بشوارع ضيقة مرصوفة والبيوت فيها قديمة تعكس، كما النبيذ، تأثير ثقافة كل من بروسيا وبلاد الغال. وأشجار الكرمة هناك عبارة عن خليط من الأنواع الألمانية والفرنسية وغير المألوفة: ريسلنيغ وهيفورتسترامينر الألمانيان، بينو غري الفرنسي وجوز الطيب العجيب – ممثلاً بأربعة أصناف رئيسية.

ظننتُ أنَّ الجميع هناك جاءوا للتفرّج على أحد ما،
واعتقدت أنَّه ثمة أيامَ آحاد كثيرة في الأسبوع.
لقد رأيتُ كيف كانت أمي تحلّق في الغيوم.
ففي يوم الأحد كانت البيرة تبدو لي لذيذةً بوجه خاص".
هذا ما تقوله المرأة ذات الوجه المنمّش.

"لم تكن الرياضة تعني شيئاً،
كان الضيوف يأتون في الأمسيات ليشربوا كأساً.
أما أنا فكنتُ أستلقي على الأرض.
بعد وفاةِ والدتي
وجدتُ صوراً في بعض العلب -
كانت تمارس رياضة ألعاب القوى:
الجريَّ ورميَّ الرمحِ والقفز الطويل.
هكذا تعرّف عليها والدي، على الأرجح.
لم أسألها يوماً عن ذلك،
فقد كنتُ أعيش في ظلِّ هدوئها.
رحتُ أبحث في الصور عن التفاصيل الصغيرة،
التي لم يكن بمقدوري أنْ أعبِّرَ عنها بكلمات عظيمة.
كان اللون الأحمر يناسبها أكثر من الأبيض".
هذا ما تقوله المرأة صاحبة الأقراط.
"الدربُ يقود إلى فوغتلينسهافن[١]،

(١) مدينة صغيرة في فرنسا حيث مقاطعة الرين الأعلى (ناحية ألزاس). وهي جزء من منطقة كالمار.

وأغنية من حجر إلى حجر،
حتى هنا أسمع إنشادَ الرهبان
في الكنيسة ذات الثماني زوايا...
وكلُّ أنشودةٍ تصدح في واحدةٍ من
الزوايا الثمانية – عبارة عن حوريةِ ماء..."
"أما أنا، أنا فكثيراً ما رحتُ
أتسكع في الحقول أيام الآحاد.
كان والديَّ يشربان grappa[١] والنبيذ.
وقد شربتُ أوَّلَ بلعةٍ من Grappa بقرف،
فرحتُ أتأرجحُ ودخلتُ
في حالة حنقٍ غير معهود عندي.
كان أبي يقرأ ريبورتاجاً عن مباريات بالملاكمة،
وهو يقول أنَّ الكثير من ملاكمي الباسك يعملون في نحت الصخور،
خرجت من البيت وذهبت
إلى أطراف المدينة حيث استسلمتُ للحقول،
فرحتُ أتطلّع إلى العشب والشجيرات ونحو الأفق البعيد،
وقد بدتِ السماءُ من فوقي بلا نهاية.

إلى جانب ذلك، أنا أذكرُ الطريقَ إلى المدرسة.
كان والديَّ يقولان أنَّ واحداً من معلّميَّ –
سَكِير أحمق،

(١) Grappa - مشروب كحولي قوي مصنوع من العنب.

ربما كانت لديه نظرة خاصة.

لم يكن يبدو سعيداً،

بل وكان تعساً أيضاً، على الأرجح مُنهكاً.

هل كان يحلم بالموت، أم أنه ارتكب جريمة؟

قرب الطريق إلى المدرسة، محايداً بعض الشيء،

كان يوجد بيت عمّي وعمّتي

مع متجر ملحق به من جانب.

كانا يبيعان أدوات منزلية

ويحبّان الجلوس حول طاولة صغيرة،

غالباً، لكي ينظرا ويحلما.

كانا يتحدثان عن أحلامهما حين يكونان ضيوفاً عندنا.

وفي كلِّ مرة كانت الحكاية تبدأ على النحو التالي:

"قبل مُدّة، حين تناولتُ كأساً من Grappa

قبل النوم، فقد خُيِّلَ لي ...".

لم يكن عمري يسمح لي بأن أستخلص نتائج.

لقد كانا حاذقين في أعمالهما.

ومع أنَّهما كان يجزمان بأن نظرهما جيد

كان كلٌّ منهما يضع نظارة سميكة.

كي يكشفا أخطاء الزبائن – كما كانت تقول ماما،

التي كانت تهوى أن تصنع لهما مقالب.

كنتُ أختبئ عندهما من المطر.

وفي إحدى المرّات ضبطتُهما يحملان صندوقَ نبيذٍ،
نبيذاً أبيض يرغب المرء بتذوقه يوماً ما
على الأقل بسبب تسميته – [(١)]"Lagrima Christi del Vezuviu".
لكنهما صعّرا وجهيهما
وقاما ببيع الصندوق للمزارع الغني.
هل يعني ذلك أن هذيَن الحالمين بسبب grappa
كانا يتاجران بالنبيذ؟ أنا لا أصدّق ذلك،
بل كانا يشربان منه في السرِّ، مثلما يفعل كثيرون آخرون".
هذا ما رواه سكارْبا.

"إني أُنشِد في الأراضي الخصبة
أغنيةً عن النبيذ الذي يقرِّبُ بين الأشخاص..."

"ثمة كثيرون لا يضنون أنفسَهم:
يشربون في الشارع أو قرب النافذة في مقهى –
وهذه لوحة مألوفة بالنسبة لمن لديه الوقت.
واحدهم قد يتذكّر تصعيرةً فظيعةً،
وآخر قد يذهب لاتهام نظرةَ مجاملةٍ،
نظرة كما لو أنها أدركت بالضبط أنَّ الإلهَ – ليس إنسانياً

---

(١) (باللغة الإيطالية Lagrima Christi مأخوذة من اللاتينية Lacryma – دمعة و Christus - المسيح) – صنف فاخر من النبيذ الإيطالي المركّز والحلو واللذيذ بلون أحمر فاتح أو عقيقي، يتم استخراجه من كروم منطقة Vesuviu... ولا يُستَخرج نبيذ لاكريما – كريستي سوى بكميات قليلة جداً لا تسمح بتسويقه تجارياً.

وأنه هزلي صرف.

فيخرجون من غرفهم الصغيرة أو من قُمراتهم

ويبدءون البحث عن سببٍ ما.

فهم يحبّون الظهور وهذا هو قدرهم.

أما أنا فأحبُّ اللهو والشهوة،

وأحبُّ النُكتَ الفاحشة والنكت الخلاعية – من دون مشاكل،

وأحبُّ الدعابات عمّن هو فاشل،

وعمّن هو على حافة الموت،

وعن الميِّت أيضاً – إنه أمر رائع أيضاً.

ولا يجوز السكوت عن الوزير أو رجل الأعمال.

ثمة شرابٌ يضاهي أرقام المنازل،

وآخر – يُشبه النهارَ في حديقةٍ مُقمرةٍ.

غالبيةُ الناس لا تكترثُ لا بغِنى

ولا بِفَقرِ الكأس والقارورة.

واحد من عازفي الجاز شرب في أحد الأيام

مشروباً من صنف مُميّز، فراح يصرخ بقوة

بحيث أنه دبَّ الرعب في جميع ألحانه.

آه، يا جميع المساكن والأوطان حيث يسود الظلُّ.

أما أنا فقد ترعرتُ في جنائن وردية.

كان والديَ يضعان طاولةً صغيرة على العشب،

وعلى الطاولة – قوارير لمختلف الأذواق،

بينما كانت الكؤوس في المطبخ.

هناك كان يجلس جارنا الذي لطالما حلمَ بأن يغنّي

مثل جونّي كاش[١]، وقد كان يرتدي قميصاً بأزرار مفكوكة.
كما كان صوته أشبه بصوت كاش؛
كان يحرص لكي لا أن يعيدوا الكؤوس وحسب، بل وأن يغسلوها.
كان يقوم بتنشيفها حتى اللمعان".
هذا ما كانت تقوله المرأة ذات الوجه المنمّش.

"جاركم لا يذكّرني بأحد.
هل سبق وأرسل يوماً ما بطاقات،
وهو ينقل تحياته للجميع من بلدان عجيبة؟
لالي بيلا[٢]- أذكُرُ مثل هكذا تسمية.
في مكان ما من إثيوبيا، كانت البطاقة
باللون الأزرق والأخضر والأصفر مع طابع بريدي
عليه صورة ظبي صغير.
أنا كنتُ أعرف ذلك الفتى، حيث كنا ندرسُ معاً.
وكنا نذهب أحياناً إلى الكافتيريا،
حيث كان يجلس هناك في الزاوية دوماً رجل
وهو يشرب الخمر بطريقة كما لو أنه مخبول.
كان يشرب بإفراط؛

(١) جونّي كاش Johnny Cash ١٩٣٢ – ٢٠٠٣ من مدينة كينغسلاند في أركانزاس... مطرب أمريكي وشخصية رئيسية في موسيقى الكانتري في منتصف القرن العشرين. وباسم جوني كاش يرتبط المصطلح أو العبارة "إنسان في الأسود" ذلك أنه تميّز منذ ستينيات القرن العشرين بلباسه الأسود دائماً.

(٢) مدينة الكهنة والكنائس المحفورة في الصخور وهي موجودة في أثيوبيا... - المترجم

وكان يروق لي أن أنظر إليه.
حاجبان مرتجفان، وحبات عرَقٍ لؤلؤية،
لكنه كان يشرب بطريقة مُقْنِعة جداً.
لم يكن مسموحاً أن يصطادني أحد في شباكه العلمية".
هذا ما تقوله المرأة صاحبة الأقراط.
"الغيوم فوق إيتِّرسفيلِّر [١]،
تحمل في قلبها قلباً آخر،
وهي لا تسعى للتناقض،
كما أنّها لا تميل إلى الشكوك...

هل ستأتي اللقالق في هذا العام..."
"الحقيقةُ تُوجد
عند كلِّ واحد في مطرحها –
عند الأبله وعند المجنون، عند المُتَعطِّر وعند المتعفّن.
عند أحدهم توجد اللثة في المخ،
وعند آخر – تتدلى حتى البطن.
أما أنا فأفضِّل أن أشربَ أصناف النبيذ
التي تقود إلى المهادنة،
إلى التوازن الهائل".
هذا ما يقوله سكارْبا.

(١) إيتِّرسفيلِّر – قرية صغيرة أو مزرعة (أدنى وحدة إدارية في فرنسا) في مقاطعة الرين الأسفل، في منطقة الألزاس في شمال شرق فرنسا. تقع عند أسفل جبل فيزوف وتشتهر بكروم العنب.

«أوركسترا آلات النفخ والإيقاع تمشي في الشوارع بهدوء،
وأنا حلمتُ كثيراً بها وتمنيتُ أن أصبحَ جزءاً منها،
فتعلّمتُ أن أسير بهدوء.
روى لي الأهل والأصدقاء قصصاً
عن النهاية الغبية للقرون الوسطى،
وأما أنا فقد أردتُ أن أمنح طاقاتي للجَمال،
الذي يقوم، كما كنت أحسبُ، في مركز السكينة –
سهب مع بحيرات صغيرة متجمّدة، وجبل مغطى بالثلج،
ومِشْيةٌ يائسة لمساعدةِ ضارب الطبل الأول(١).
أنا رأيت هذه اللوحات حين كنتُ أنظر إلى الكؤوس،
تلك الكؤوس التي كانت في اليد أو على الطاولة».
«أنا أُنشِدُ أغنيةً عن الشجاعة وعن الرفاق والتحولات،
أغنيةً عن نظرية البرهان بالتناقض(٢)...»
«لكن اللحظات الأكثر محوريةً
لم يتمَّ صبّهُنَّ في الكؤوس،
بل كان يتمُّ حفظهنَّ في قناني

---

(١) Majorette كلمة فرنسية – وتعني مساعدة "tampor Major" أي ضارب الطبل الرئيسي - الفتاة في تنوره قصيرة وفي طقم يشبه البدلة العسكرية مع زركشة وشرائط تزيينية وفي جزمة. وهؤلاء يضعنَ على رؤوسهن قبعة عسكرية عالية مع ريشة ويحملن في أيديهن صوالجةً أو طبولاً. وهن يمشين عادة مع الأوركسترا العسكرية ويضبطن الإيقاع.

(٢) Proof by contradiction طريقة **للبرهان** عن طريق إثبات أن بعض **فرضية** أو بعض الفرضيات المناقضة للفرضيات المقدمة تؤدي إلى نتائج غير منطقية. وهو نوع خاص من الصيغة العامة للحجة المعروفة باسم **برهان الخلف**. المترجم

على سبيل الذكريات أو البشائر،

وكأفكار خارجية مثالية يجب السعي إليها.

راح والديَ يتحادثان بتحفّظ وبكلام موزون.

أما أنا فحاولتُ أن أخدعَ نفسي،

بأني حيّةٌ

وأنه يجبُ عليَ أن أحيا دون أن أَشْهدَ

تحقيق رغباتي الجامحة... إذ كانت تحميني".

هذا ما كانت تقوله المرأة صاحبة الأقراط.

"كلا،

يستحيل حماية أيٍّ كان حتى من الجحيم،

وهذه فكرة رائعة.

انطلاقاً من هذا اليقين، نبحث عن التوازن

بين الزهرة وبين عنفة الشيطان،

بين الخرافة وبين البوابات،

بين الواجهة الزجاجية وبين الدبِّ

نهاراً، غالباً بين الثانية والرابعة،

أو مساءً، وعندئذٍ بعد العاشرة، أوووووووووه!

إني أنهضُ وسط حشود النمل الدؤوب فأشعرُ،

أضعُ يديَ على الطاولة الخشبية وأشعرُ،

أجتاز الفناء رافعاً رأسي بكل اعتزاز وأشعرُ،

أما ماضيَّ فيتناثرُ إلى شظايا يستحيل التعرّف عليها،

وأنا أشعرُ بأني ظللتُ ثابتاً على قدمي
بمساعدةِ منظومة الحبال،
المجدولة من اللحظات التي تخلب اللبَّ.
لكن اسمحوا لي أن أتذكّر المنظومات الأخرى،
أن أتذكر السماوات الأرجوانية، والهدايا من الخشب".
هذا ما يقوله سكارْيا.
"الأمراء والأميرات في إيغيس هايمه(١)
الذي يمارسون لعبةَ التوازن على خيطٍ غير مرئي،
لا يشبهون في شيء تلك التعاويذ،
التي يقارنهم بها المُتَسوِّلون...
وهم يتبادلون مع بعضهم الهدايا الثمينة
ويحلمون بداليةٍ عادية..."
"أنا أؤمن بأنَّ مثلَ هذه الخمور لذيذةٌ،
بأنه ثمة ألفُ صنفٍ لذيذٍ من النبيذ،
ربما، في هدير الإنفجارات وسيارات الإطفاء،
ربما، في جميع البلدان، والأماكن، والوديان والكهوف.
خذوا إطلاق الرصاص من الأسلحة والحرارةَ،
خذوا شبكة المياه والصيدَ،
خذوا الأسماء البشرية والأسماءَ التي تُنذر بالشؤم،

---

(١) إيغيس هايما – مجموعة اثنيه في مقاطعة الراين الأعلى في شمال شرق فرنسا. وهناك يتم تصنيع أنواع فاخرة جداً من النبيذ. وعبر إينغيس خايما تمر «درب ألزاس النبيذي» أو «خط سير» ألزاس النبيذي.

خذوا إحصائيات البطالة عن العمل وقاطعي الرؤوس،
خذوا الإبهامَ ومعدلات النمو،
خذوا أسعارَ الخمور!»
هذا ما تقوله المرأة ذات الوجه المنمّش.

«تماماً،
مع أنَّ أيّاً من تلك السرديات لن يحكي
عن محتوى القوارير
أو عن منشأ الإحساس.
فلماذا يجب أن نتقيَّد بالنبيذ؟
كما لو أنه ما مِن تطرُّفٍ في الكونياك أو في البراندي المصنوع من البرقوق[١] أو الجينيا[٢]».
هذا ما تقوله المرأة صاحبة الأقراط.

«إني أُنشد أغنيةً لأولئك الذين يموتون،
أغنية تتطلبُ الريبةَ...»

«الأسباب – هي بمثابة سيارة تكسي في الحديث.

---

(١) صنف من البراندي الذي يتم تحضيره من الخوخ أو البرقوق وهو مشروب منتشر بشكل خاص في جميع بلدان البلقان وأيضاً في تشيكيا وسلوفاكيا. كما إنه يعتبر مشروباً وطنياً في كل من صربيا وبلغاريا والجبل الأسود وغيرها من البلدان السلافية في منطقة البلقان. وله اسم آخر هناك – راكيا – وهذا يشبه العرق عندنا إذ يكتسب المشروب لوناً حليبياً بعد إضافة الماء إليه.
(٢) جينجينيا أو باختصار جينيا – ليكيور برتغالي مصنوع من الكرز ...

تروق لي القيود،
لأنها تبرِّر السرديات.
عدا عن ذلك، هل ثمة مشروب الجِنجينيا هنا في واجهة المحل؟
كلا، ولكن هل نحن مُلزمون بالسعي نحو الكمال؟
لا أعتقد، مع أنَّ مشروب الجنجينيا – شيء رائع جدّاً.
كنت أودُّ لو أنَّ الجميع يتناولون مشروب الجينيا!
فالمشروبات الرقيقة عاطفياً غير متوفرة.
هيا، استعجلوا واحضروا لنا بسرعةٍ مشروب الجينيا!»
هذا ما يقوله سكارْيا.

"لقد سمعتُ ما الذي كانوا يقولونه
عن مشروب الجينيا على شاطئ البحر
في تونس أو اليونان،
مواطنون من النرويج كانوا قد
ترعرعوا خلف القطب الشمالي،
كان ثمة تقليدٌ قديمٌ لديهم بأن يسقوا
الأطفالَ الرُضَّعَ عسلاً مصنوعاً
من حشيش الدينار –
وأيضاً بيرة عالية التركيز يمكنها
أن تطرح الضعفاءَ أرضاً...
وفي يومٍ من الأيام ضلّوا طريقَهم
في لشبونة وعرّجوا إلى فندق
فيه نافورة على الطراز الموريتاني.

راحوا يشربون الجينجينيا بالقرب
من تلك النافورة،
فأدركت واحدة منهم مغزى الحياة
المتوحشة غير المحدودة.
كان مشروب الجينيا لديها في الفم وفي الروح
يحتوي حياة الأجزاء الأخرى من الكون،
تلك الحياة التي تمتزج مع الأوراق المتساقطة
من شجرة كرز مزهرة".

"أنا أغنّي عن نافورةِ المشاعر،
النافورة التي لم ترتفع يوماً أعلى من نسرٍ
مُصابٍ بأقصى درجةٍ من حسرِ البصر..."

"بينما كنتُ أستجمُّ في قريةٍ برتغالية للصيادين،
حَدَثَ أنّي تناولتُ الطعامَ في مطعمٍ كان صاحبه من جوَا،
وقد كان رجلاً متأدبّاً وبليداً كإنسان
لكنه معلّم ماهرٌ في مهنته.
وقد أقنعني بأن أجرِّبَ مشروبَ الجينيا،
وهكذا أنهيتُ المساء مع الجينيا ومع الجينيا بدأتُ الليلَ،
ثم عدتُ إلى فندقي تغمرني السعادة إلى حد الجنون.
جميع التباينات – كانت تباينات،
وكلُّ حلاوةٍ – كانت حلاوةً.
والظلامُ – كان ظلاماً غيرَ مسبوق.

كانت أحاسيسي مُفرطةً ونمتُ نوماً رائعاً لم أعرفه من قبل،

ربما، أنا رأيتُ نقاطاً أو ألواناً،

وربما مسافات أو ربما ذكريات.

كما إني اختبرتُ الزمن والتجهّمَ،

خبرتُ أغنيةَ الطفولة التي تجعل الحياةَ سهلةً...

عرفتُ الليلَ الذي أسْقطَ الحكمةَ.

جينجينيا، جينجينيا، رحتُ أنسى وأتذكّر،

وكم دوّنتُ يوماً ما من حماقات في الاستمارة،

أنَّ الجنون

والسعادة – هما الماء والنار.

طبعاً، الشمس تغيب في البعيد،

بينما البحر لا يبلغ تلك الأمكنة".

هذا ما تقوله المرأة صاحبة الأقراط.

"كنتُ أحسَبُ أنَّ الجميع يُعجبَون بأحدٍ ما.

أنا لا أعرف ما هو مشروب الجينيا، كما إنه لا يعنيني.

أيُقال أنَّ له طعمَ الكرز؟

هل يُصنَع مشروبُ الجينيا من الكرز؟

المهم هو أنَّ المشروبَ يجعلك تشعر بالمرح.

ثمة مرحٌ واحد فقط،

المرح الفريد.

والمرح موجودٌ من دون أداة تعريف.

أما كلُّ ما تبقى – فمجرّد خرافة مخصصة للحمقى،

مثلها مثل الأحاديث عن أهمية حاسّة الذوق –

عبارة عن قضية تتعلق بسوء التربية لا أكثر".

هذا ما تقوله المرأة ذات الوجه المنمّش.

"أنا أنشد أغنيةً بسبب القرف،

أغنية تريد استبدال القرف بالجسد..."

"تربية سيئة؟ هذا يتوقف على الزاوية التي ننظر منها.

أهي تربية؟ بهذه الطريقة سريعاً

ما سوف يتحوّل طائر النار إلى دعسوقة (أم العبد).

فالفروقات – هي مظاهرٌ حيّةٌ،

مقاديرٌ تمنح القوةَ للزمن.

ها هو درس من أيام شبابي:

رغبتُ يوماً بأن أمتِّع نظري بالحقول

وليس في هذا ما هو شيء غير عادي.

فالناس الذين يسافرون إلى مناطق نائية جداً،

وهم يحملون في جيوبهم بعض البسكويت،

أو قطعة من الخبز، لكي ينظروا ويراقبوا،

لكي يطلقوا التسميات ولكي يرتابوا... هم يشكّلون الغالبية.

حين ألتفتُّ إلى الوراء، شاهدتُ في البعيد رأسَ أمّي

وفي نفس اللحظة شاهدتُ طائراً رائعاً.

وبسبب الاضطراب لم أعرف بماذا أفكّر.

فما هي العلاقة بين أمّي والمدى البعيد؟
بين الأمِّ والطيرُ؟
بين ما هو غير مُتوقَّع وما هو واردٌ؟
إني أحتفظ بقنينة فارغة مخصصة لشراب الجينيا من أناديا[١]،
تلك المدينة التي كثيراً ما يأكلون فيها لحم الخنازير الصغيرة،
القنينة التي سبق وأهداها لي صديق
كان قد قرّر التوقّف عن السُكْرِ.
هنا يكمن خبلُ الجينيا –
إذ بسببه تهلكُ،
إنه مزيج من الكيفِ والمشاعر المتنوعة.
عند حدود الحقل شعرتُ بنفسي
خائفاً، مُهتاجاً، بلا غايةٍ ومرحاً".
هذا ما قاله سكارْبا.

"المرحُ من دون حاسّةِ الذوق – لا شيء.
لا داعي لأنْ يُقالَ المزيد من الكلام.
أنا لم أتذوَّق جميع صنوف النبيذ، وجميع أنواع البيرة.
فالمياه النارية لا تضاهي هدوءَ أمّي
سوى إلى درجة قليلة جدّاً.
الذوق يعلّمني أن أدرسَ بعنايةٍ الإنسانَ الآخر.
أما المرح فيعلّمني أن أجرِّب إنساناً آخر.

---

(١) أناديا – مدينة في البرتغال

ترينتينو[١] ، رينغاو[٢] ، موزيل[٣] سارار وروفير
وسفوحها الملكية!
يمكن للأيام أنْ تكون عيداً،
ولكنها مع الأصدقاء فقط يمكن أن تصبح الأيام عيداً!
الضحكُ – أداةٌ ساحرة تجرِّدك من السلاح،
بيدَ أنَّ المنادمةَ ترهقني مثلما ترهق صديقي،
فنلقي برأسيَنا على الوسادة لكي نرتاح،
ونواصل نومَنا لكي يمتدَ الواقعُ أطولَ فترةٍ.
ثمة رجال ونساء يتألقون في ثياب برّاقة،
أما الأفكار فتعدو في الأزقة الضيقة
وهي تحاول أن تتخلّصَ من الكلمات.
انظر، هي ذا الملكة تترك رداءها ها هنا أيضاً
في أيدي الفلاحين.
وأما القارورات فلم يشربها فَمٌ واحد فقط،

---

(١) ترينتينو – اسم منطقة في ايطاليا، ليس لها منفذ إلى البحر. وهي تقع في وسط منطقة الألب الإيطالية. على الحدود مع النمسا وسويسرا. وهذه أيضاً تسمية لصنف من النبيذ الأبيض المز الفاخر بلون ذهبي فاتح يتم تحضيره من العنب صنف شاردون وسوفينيون وبينو بلان مع إنكروتشيو ومانتسوني.

(٢) رينغاو منطقة لها أهمية جغرافية وثقافية تقع في وسط ألمانيا، في مقاطعة هيّسين وتشتهر بكروم العنب في وادي نهر الراين.

(٣) اسم الرافد الأيسر لنهر الراين والذي يعبر فرنسا ولوكسمبورغ وألمانيا ومقاطعات في شمال شرق فرنسا. ويصنف الكثير من الخبراء أنواع النبيذ الأبيض من منطقة الراين وموزيل بأنها من أجود الخمور في العالم. وفي منطقة وادي نهر موزيل وراوفده سآرا وروفيرا – يوجد أحد أقدم مصانع النبيذ في أوروبا.

وليس كل القارورات تبعث نفس الرغبة تماماً بأن نثمل.
فمحتواها يجب ألا يكون أسوأ مما هو جيّد
ولا أفضل مما هو جيِّد جداً.
أما أنا فأسعى إلى الجودة الكلّية...
لأنَّ الشرحَ بواسطةِ الجداولِ والبيانات
لا يأخذ موهبتنا بالحسبان.
مجرّد أنك تعتقد بأنَّ النبيذَ رائعٌ –
يكون قد بات الوداعُ واجباً
وأنه يجب أن تذهب للنوم.
أو أن تبصق الضجرَ والسوداوية!

Idem dito[١]، يا لليدين والساقين البهيّتيَن!
ما هي سوى تبدّل منقول بواسطة الجسد
في صيرورة، وفي بانوراما، أو وِحدة تبعث على النشاط،
وحدة لا يربطها أي شيء مع الدموع أو الشكوك".
هذا ما تقوله المرأة صاحبة الأقراط.
حين يشتهي الوقت في ريكفير[٢]
بأن يمتصَّ خمورَ السكون المطلق،
وحين يَرحلُ الوقت عن نفسه،

---

(١) كما قلنا أعلاه... (من اللاتينية)...
(٢) ريكفير – بلدة تقع في قلب كروم العنب في منطقة الألزاس...

لكي يقومَ بحماية الشوارع المقفرة...

سوف يستمرُّ معرضُ المشاعرِ مُحافظاً على بريقه..."

"اللحظة أكثر وَهْناً من الساعة.

والخمورُ التي تمنح شعوراً

لطيفاً وعميقاً بالراحة،

لا تجعل فتوَّتي أكثرَ قرباً مني،

والألم من إدراك الجري المذهل للزمن يبعث على التشاؤم.

ثمة شرح ملائم من تشيخيا،

بلاد الطبيعة المتوحشة والجداول الكثيرة،

التي تبدو كما لو أنها تجري بكلِّ هدوء.

ففي أثناء الاحتفالات التي تمتدُّ لِعدّةِ أيامٍ،

يتنزَّهُ الجميع على درّاجات هوائية مزدوجة

في غابةٍ كثيفةٍ عذراء.

وفجأةً يشاهدون شعاعاً من الضوء،

وفي الكوخ يقدّمون لهم البيرة

في عددٍ كثيرٍ من الكؤوس دفعة واحدة وبالتناوب.

فتراهم يزعقون وينوحون، يضحكون ويعربدون.

فَلتحيا الغابات الكثيفة! ليحيا الزمن!

ومن ثم يركبون دراجاتهم من جديد وهم سُكارى،

حيث يقفلون راجعين بمحاذاة الجداول المتهامسة،

حتى يصلوا إلى الكوخ التالي، وهكذا دواليك.

يكتسب السُكْر مقاييسَ غير بشرية،

ويتمُّ استبدالُ التّعبِ بالطعن بالسكاكين...

كم هي مُغريةٌ تلك الجداول!

وكمْ هو مؤلمٌ أنْ تُدركَ أنها تجري لزمن محدود!

إنَّ فترة شبابي الممتلئة بلوحاتٍ غرائبية، ترجوني

أنْ أموتَ من دون عنف".

هذا ما يقوله سكاريا.

"كنتُ طفلةً صغيرةً،

وكنتُ أحسبُ أن الجميع يُعجبون بأحدٍ ما.

بيدَ أنه يوجد سبعةُ أيامٍ في كلِّ أسبوع،

وأنه ما من شيءٍ رهيب في ذلك".

هذا ما كانت تقوله المرأة ذات الوجه المنمّش.

ربما، أربع معادلات

"من المضحك أنْ نتظاهرَ جميعاً بأنّنا نعرفُ بعضنا البعض.
فما له قيمة عملية هو أن يراقب واحدُنا الآخر.
اليقينيات تحيا في السحب،
أما في المروج فتوجد دكاكين لبيع الألماس.

في مثل تلك الدكاكين أنا أشتري الكلمات،
بالرغم من أني لستُ خبيراً في الألماس.
أما الكبرياء، فعلى العكس، أنا أكسبه عند الجزَّارين،
لأنَّ الطريق إليهم في منتهى الروعة.

إياكم أن تسمحوا لأيٍّ كان أن يرصف ذلك الطريق في يوم من الأيام...

لديَّ نقطةُ ضعفٍ تجاه الأحجار،
لعلّي أُفتَتن بها وأحبّها.
أنظر إليها وأحترمها.
فالأحجار سخيّة ودؤوبة.

من الأفضل لي ألا أقول ذلك:

الطريقُ إلى الجزّارين جميلٌ
بسبب الطين والغبار.
ولكن قد يسقط عليه أحياناً، كما يبدو لي، بعض الرمل.
فكم هو غريب مع ذلك أن تتمكن أعضاء الحسِّ أنْ تنشد لنا،
كيف هو رائع الدرب إلى الجزّارين.

نظرةٌ مُطّردة لثوان،
وطنينٌ متواصلٌ للذباب.
إحساسٌ لا ينقطع بالخلود،
الخلود الذي يختبئ في الريح!
وعويلٌ آخر، إحساسٌ آخر،
هنا كلُّ شيءٍ مختلف، كل شيء مختلف ومختلف!

إذا ما عبّدنا الطريقَ إلى القصابين
فسوف تظهر أرواحٌ فظَّة.
وأنا اعتدتُ على الأرواح الفظّة
من مختلف الأنواع والأحجام،
ولكن الأرواحَ الفظَّةَ لا تناسبُ طَبعي.

تحتشد جميع التعقيدات!
وسوءُ الفهم بأكمله يُضاعَف أربع مرات!
أرأيتَ كم يمكن للريحِ أنْ تحتدمَ اهتياجاً!

يا لكنز الرغبات الثمينة،
يا قصراً من الرمل على جلمودٍ هو الأكثر تكلّفاً!

نعم، أنا أريد أن أَقصَّ وأن أَنظُر،
ويروق لي أن أتظاهر
كما لو أني أعرفكم جميعكم، وأني وجدتُ متعةً
في لزوم الأشياء العملية،
نعم، إنَّ الأمر هكذا.

ثمة في البعيد كلبٌ هزيلٌ ذو نظرة إنسانية...

من المهمِّ أنْ نعرف
ما هي العوامل التي يأخذ بها هذا الكلب،
حين ينحرف لدرجة واحدة باتجاه الشرق،
أو الغرب.
قارنْ بين هذه المسألة وبين الدوافع عند هُواةِ جمع الأشياء،
ثمَّ قارنْهُ من جديد مع مُدّة صلاحية إشارات المرور.

مهلاً، مهلاً، لا تخف،
فالوقت ينتظر.

أنا أنتظر دون أن ألتَفِتَ للوراء.
والأرواح التي ترافقني أيضاً لا تتلفت للوراء.

والسحبُ فوق متاجر الألماس
تتخلى عن الشكوك.

أمشي نحو ذلك الكلب.
الأرواح التي تحرمني من النوم، عمياء،
والغيوم مع يقينياتها
كسولةٌ.
لكني أمشي إلى ذلك الكلب،
ذلك الحيوان الذي لا تكترث به سوى الحجارة،
الكائن التافه، الذي خُلِق من أجل موتٍ قادم،
الكائن الذي يبحث عن شيء ما.

أنا على وشك الوصول إلى ذلك الكلب،
وإذ فجأة بدأتُ أرتعش: أشعرُ بالغثيان، أريد أن أهرب!
عيناه أشد سطوعاً من عين البرق،
إنهما تنفثان ناراً، وهما مرعبتان ووحيدتان...

أتسلل إليه، وأناديه،
فأنسى الكلمات وقواعدَ النحو والجُمَل المركبّة.
آها، ربما أمتلك من الطاقة ما يسمح لي
بأنْ أتفوَّهَ بشتيمة ولو لمرّة واحدة؟ أو أن أستخدم إبصاري كبرهان؟

الطريق إلى الجزّارين – خطٌّ مستقيم،
مع حجارة مرمية على جانبيه –
فرادى، وأكواماً صغيرة وكبيرة، وتلالاً من الحجارة.
إني أتفحّصُ الكلبَ أمامَ ناظري.

كنتُ سأتخلى عن جميع الأقاليم،
وربما تنازلت عن أجزاء من الضوء للأجلاف،
كنت سآمرُ باغتيال القمر،
وما كنت أبداً – أبداً – أبداً آذيتُ النجوم،
ولكنتُ أصبحتُ سهلةَ الانقياد ولبقةً وذا نيّةٍ حسنةٍ دوماً،
لو أني استطعتُ من جديد أن أختبرَ
تلك اللحظة حين رحنا ندرس بعضنا البعض.

أنا أتأمّلُ الكلبَ وأرى الحقيقةَ.
أنا أتأمل الكلب وأرى الواقع.
أنا أتأمل الكلبَ وأرى ما هو حقيقي.
أنا أتأمل الكلب وأشعر...
آه، التفاهم المتبادل الذي أحسب أنه
ويجب عليَّ أن أحسبه مستحيلاً!

تفصلني عن الكلب مسافة متر واحد فقط.
ثمة تفاهم بيني وبين الكلب!

سوف يجيبون على أنيني بالأنين،
أعينُنا تعبّر عن الاتحاد!
أرجو أن تفهموني بشكل صحيح، فأنا لستُ سعيدة في اختياري.
ولكن، وبينما أتمسَّكُ بالحجارةِ المتهاوية،
أنا أسمع كيف إنَّ نبرةَ النُباح تَجِدُ الطريقَ إلى قلبي،
وأرى كيف تقطرُ حماقاتي من شَدقِه،
أسمع غراباً ودقاتِ ساعّةٍ وضجيجَ تراكتور،
أرى مقاعدَ مترابطةً من زمن شبابي،
أسمع التنهيدات الثقيلةَ والغرائبيةَ لمحور الأرض،
أرى، أوه، إنه أمر مستحيل! – تقارباً مُنجَزاً.
أسمع...
أرى...
نعم، لقد تخلّصتُ من المخاوف.

هُس، لا تخف،
الوقت ينتظر، فالوقت – عبارة عن تفاهم.

الآن أنا أيضاً أَفهمُ مختلفَ الأكاذيب التي أنبذها،
والأرواح التي يقشعر لها بدني،
وفجأة أُدركُ تماماً
لِماذا أنا أشعر باللذة حين يكون ممكناً الشعور بها،

لِذّة من جرّاء السخافات التي اقترفتها،
من تغييرِ مكان الكرسيِّ،
كما إنّي أعرف تماماً
لماذا تكون أفعالي المتناقضة -
عبارةً عن نتيجةٍ للشبق!

نتعانق أنا والكلب،
نستوضح نوايانا،
نشعر بالتأثير الفاتن لما هو مرتفع ومنخفض،
لطاولةٍ مع كأسٍ والإرشادات اللازمة،
وأيضاً الماضي والحاضر، الحاضر وما لن يحدث أبداً،
وعلاوة على ذلك، نحن نشعر
بما يقوله واحدُنا للآخر، ، بينما نحن متعانقيَن،
كما لو أننا أوانٍ مستطرقة تسيل.
نحن كاملان تماماً.

مهلاً، هُسّ، لا تخف،
فالوقت يَفقدُ صبرَه.

هذا هو الواقع، هذا ما يحصل حقاً.
أواه، من الصعب أن نروي عمّا يجري،
عما يكفُّ عن الحدوث، عمّا يضطرب، عمّا يرتجف، وعمّا يتبخّر،

وما هو أكثر صعوبةً أن نقصَّ
كيف إنَّ شيئاً ما ينتهي.

لحظات مُنسَّقةٌ على لحظة واحدة،
لحظات منقولة بواسطة الأرواح التي ترافقني،
لحظات لا تختلف عن ضربات القلب الصارمة،
لحظة وحيدة تنشطر إلى لحظات...

الكلب الذي يراقبني،
والذي يفهم نزعتي نحو الخير –
عبارة عن مُلكيةٍ للحجارة، وهو يعرف ذلك.
بيدَ أنَّ رغبته بأن ينظر في عيني مباشرةً،
وأن يقتاتَ على أنفاسي –
هي رغبةٌ كلبيةٌ وبشريةٌ في آنٍ واحدة.

تفاهمٌ مُتبَادَلٌ وشعورٌ بالوحدة غير مسبوق...
والثواني تمضي أشبه بالسنين الضوئية،
وكم هو جميلٌ أنْ تراقب كيف
إنَّ الغيومَ تتكشف لليقينيات الواضحة فقط.
كفانا شكوكاً، كفى.
فمع كلِّ قطرةِ مطرٍ يَسْقطُ جِزءٌ من الرصد الدقيق،
وكذلك الحُكْم الوحيد الذي يمكن أن ينتجَ عنها.

مع قطرات المطر تهبطُ إلى الأرض العوالمُ، والأشياءُ الصلبة والهشّة،
وأيضاً الآراءُ بخصوص الآخرين،
التي تبتكرها بالكامل وبالمطلق أرواحُ الأحياء،
في حين أننا نحن، الذين نتلقّى ونجمّع، وأحياناً نبتهج،
نبقى بعيدين عن التفاهم المتبادل وعن الوحدة غير المسبوقة.

أقول لكم، أنَّه بعيداً جداً،
أقول لكم، أنّه بعيداً جدّاً،
يموت الكلب بين يديَّ.
وأنّي أتابعُ طريقي تحت قِبّةٍ من السحب.
ثمة دكاكين لبيعِ الألماسِ متناثرةٌ على المروج".

"إنها حكايةٌ مشكوكٌ فيها
أنا لا أعرف مثيلاً لها.
فأنا أنظر من حولي بعينين
تتحاشيان الغموض.

لا وجودَ للأرواح.
لو أنها كانت موجودةً لكانت، ربما، قالت الحقيقة،
لكنها غيرُ موجودةٍ.
لو أنها كانت موجودةً، لكانت ربما سافرت إلى مكانٍ ما،
لكن لا وجودَ لها.

لو أنها كانت موجودةً، لكانت، على الأرجح، ابتكرت شيئاً ما،
بيدَ أنها غير موجود.

أنا أهوى النظرَ إلى القمر.
في أحدِ الأيام حللتُ ضيفةً في القرية عند أخوين شقيقين.
كانا يقطنان بيتاً صغيراً.
أحدهما كان يُدعى صباح الخير،
والثاني – نهارك سعيد.
كان كلاهما مصابيَن بالروبصة.
وكانا يروقان لي.
لقد كانا سعيديَن.

"لماذا صباح الخير ونهارك سعيد؟"- سألتُ.
كان ذلك عشيّةَ مهرجان قُرويٍّ سنوي،
حيث كانت تُعزف موسيقى عبر مكبرات للصوت،
وقد راح محافظ البلدة يتحدَّثُ
مع سيّدةٍ من عليَّةِ القوم،
بينما راح الشقيقان يحومان حولي،
وهما ثملان ويريدان أن يرقصا،
كما راح أولاد الخبّاز يصرخون بمرح،
أما النسوة اللاتي أحضرنَ الأزهار إلى المقبرة، فقد كنَّ أكثر هدوءاً
بكثير من النساء العاملات في الأرض،

مع العلم أنَّ مُعظم الرجال كانوا سُكارى.
جميع تلك الرؤوس،
وكل تلك الأفواه المثرثرة والماضغة،
هدير الأصوات والصيحات الحادة،
وذلك الهمس الذي كان ممكناً أن نراه وحسب.

كان الشقيقان بحالة لا تسمح لهما بالإجابة.
كانا يرقصان - مع بعضهما وليس مع أي أحد آخر،
كان يرتميان على الآخرين، وعلى الأرض،
ثم كانا يتشاتمان ثم ينهضان ويلتقط كل منهما كأسه...
أواه، لقد كان مساءً بديعاً،
ولم تكن بي رغبةٌ
بالنظر إلى القمر.

بينما كنت أرقص معهما،
جاءني الصيدلاني ومعه ابنه الصغير.
وبسبب الضجيج والكحول،
كان من المستحيل أنْ أفهمَ ما يقوله،
وكان يهزُّ رأسه.
فكان ابنه يصرخ عند أذني
بأنه يجب عليَّ ألّا أرقص مع هذين المخبولين،
وأنَّ والده لا يريد ذلك،

وأن ذلك ليس حسناً بالنسبة لي،
وأنَّ الأمرَ سوف ينتهي نهاية سيئة...

بالطبع، أنا تابعتُ الرقص،
وطبعاً لم يحدث أي شيء مسيء،
وإنه لمن السخف الشديد أن أعتقدَ
كما لو أنَّ شرّاً حقيقياً
سوف يحدث بعد تلك التحذيرات الغبية
وذلك الحسد غير المُبرَّر...

ومع ذلك، أنا أتساءل أحياناً
لماذا يحدث أمرٌ ما، بينما أمرٌ آخر لا يحدث،
وأنا أطرح على نفسي هذا السؤال أثناء ليالي الأرق،
كما وأسأل أنا شخصياً بالذات علماء الفلك عن ذلك،
وأسأل أيضاً الناس الذين يقفون معي في الطابور،
بغض النظر عن طريقةِ وقوفهم أو تسريحة شعرهم،
كما أسأل عن ذلك أيضاً بائعي وبائعات
المكسرات والفواكه، والأقمشة،
وجميعَ الذين يعملون ببراعة
أسأل عن ذلك أحدَ رُكّابِ الحافلة،
لأنّي أؤمنُ بالمصادفة،
كما أسألُ عن ذلك

الحلاقين والمدلّكات، لأنهم خدومون.
أما الأرواح فلا، لا أسألها عن شيء.

الأرواحُ ليستْ خدومةً،
وعلى أية حال، هي غير موجودة.
ولو أنها كانت موجودةً، فربما كانت ستقدِّم المساعدة،
لكنها غيرُ موجودة.
وأكثر من ذلك، أنا على يقين
من أنَّ الأرواحَ لو كانت موجودةً
لِما كانت قادرةً على إعطاء إجابة.
أرواح... كفّوا عن ذلك! مُجرَّد التفكير بها أكثر قرفاً من الحديث!

والكلاب! هي ليست أفضل على الإطلاق! ولن أضيف كلمة!
ربما، يجب عليَّ أن أتعلَّمَ النُباحَ لكي أفهمَ شيئاً ما؟

كم أحبُّ أن أسمع أجوبةً متباينة،
أجوبةً جامحةً وأجوبةً نائمةً،
أجوبةً بملامح واضحة وأجوبةً مُبهمة،
أقربَ إلى أحلام...

أجوبةً تُناقض بعضها بعضاً،
أجوبةً، تبدو وكأنها متناقضة، لكنها مُفْحِمة،

أجوبة تعتدي على الحياة، وتُهين بمصطلحات تقليدية .

إنها كوابيسٌ ليلية بالنسبة لبعضها البعض.

أجوبة لا تعطي إجابات!

نعم، يروق لي أن أسمع لماذا حدث هذا أو ذاك،
بل حتى إنَّ جميع الآراء مجتمعة لن تمنحَ الفهم بعد.
سوف أقول لكم ماذا أفهم أنا:
إني أشعرُ.

القمرُ مُبهَمٌ،
لأنَّ القمرَ – ليس إحساساً.
وكذلك السلاح – ليس إحساساً،
وأيضاً النزهة – ليست إحساساً،
والساعة،
والاتفاق،
وقطعة البطيخ.

قطعة البطيخ – غامضةٌ، مثلما هي عملية امتصاصها.
أتذكّرُ المهمات التي أنجزتها،
والاحتفالات التي شهدتُها،
وشقيقَ صديقي الذي يتاجر بآلات التنظيف،
وصديقتي، مديرةَ شركةٍ للتنظيفات،

والملامات التي كنتُ أنوي دحضها،
ونزهةً في الشارع.

مثل هذه الذكريات – إحساس.
أنا أتذكّر الشقيقين المصابين بالروبصة،
اللذيَن كانا عرضةً لمختلف الشتائم والنبذ:
لو أنهما كانا ها هنا...
لكنتُ شعرتُ بالحنان.

أكثر مما أنا الآن
وأكثر مما لو كانت تقف هنا الآن الملكة أو الملك،
سواء أكان الوقوف بوضعية "الراحة" أو بالتاج أو مع الحرس.
أكثر مما لو أنَّ القمر بانَ فجأةً
وأكثر مما لو أنني تحدّثتُ عن ذلك مع شخصٍ آخر.
الجميع يعرفون، أنَّ انتصارات الماضي العظيمة –
فريدةٌ ولن تتكرر،
أما الكوارث فقد ظلّتْ كوارث حتى الآن.

آه، أنا أتفوَّه بأشياءٍ غيرِ قابلةٍ للشرح...
مع العلم أنّي أكره جداً أن أقولها.
فأنا أفضّلُ رجليَن اثنين،
يهويان الرقص،

اثنين يصمتان أياماً بأكملها وأياماً أخرى يغنيان،
يقومان بتصرفات بسيطة،
بسبب أو من دون سبب،
يجلسان إلى طاولة صغيرة ويهلوسان،
يرتديان سترةً ويستمران بالجلوس،
يُحدِّق واحدهما في الآخر وهما سعيدان،
يخرجان إلى الشاعر دون أن يغلقا الباب خلفهما،
لديهما وجهات نظر مختلفة،
يقومان بإيماءات بأياديهما وهما يتأملان وحين يتوقفان عن التأمل،
يأخذ كلٌّ واحد منهما بنكش أذنيه،
أو يلحس شفتيه،
يقطفان أوراقاً عن الأغصان،
ويتلفتان بطريقة مباغتة.

يبلغ طول كلٍّ منهما إلى مستوى كتفي،
ولكنهما مع ذلك حقيقيان جدّاً لدرجة يبدوان معها
كما لو أنَّ أحداً ما ابتكرهما.

ما الذي أكشف عنه، إذ أُصرِّح
بأني لا أحبُّ أنْ أقولَ أشياءً غيرَ مفهومة؟
لعلّي، أكشف عن عالمي الداخلي؟
هل أخسر أنا ما لم أكسبه على الإطلاق؟"

- ٨٤ -

"لا أستطيع أنْ أساعدكم في شيء.
لأنَّ أجوبتي كانت ستكون شحيحةً.

أنا غالباً ما أجيبُ،
دون أن أعرفَ لماذا،
أنا غالباً ما أجيب،
دون أن أعرف كم هو جوابي دقيق،
أنا غالباً ما أجيب،
بكل بساطة لكي أتكلَّمَ.

ثمة صنفٌ من الناس،
الذين يدسّون الورقَ في الفَمِ،
ومن ثم يبصقون مِزقَها،
وثمة صنف من الناس،
الذين يحتفظون بأفواههم مُحكمةَ الإغلاق،
حين يُتخيَّل لهم أنهم يسمعون سؤالاً.

كلا، لا أستطيع أن أساعدكم في شيءٍ
ولا أستطيع أن أساعدَ أياً منكم
وبالرغم من ذلك، أنا لا أصمت.

أنا أتحدَّثُ بسبب عدم الثقة.
وأنا لا أقصد أني لا أتجاسر

لكي أرى شجرةً في الشجرة.
إنما أنا أتحدث لكي أُسيِّجَ نفسي باليقين.

هل تلاحظون كيف،
إنَّ الناس يحدّقون في اتجاهات مختلفة؟
وهم يرون الموتَ
في الشجرةِ وخلفَ الشجرة، إلى جانبها وأمامها.
فالأزهارُ العطريةُ تبعثُ عندهم ابتسامةً،
أما الشجرةُ فيأتي معها الموت.

بل إنَّ الموتَ يأتي مع كلِّ شيء،
ومن الطبيعي أن يكون هذا مبرراً وراسخاً.
لكن الموتَ يأتي، قبلَ أيِّ شيء، مع الشجرة.
فأنا لم أحصرْ تفكيري بالسلالم وحسب.
أو بالفيلات، وبمحلات تنظيف الثياب أو بالحنفيات،
أو بالكأس الذي صنعه نافخُ الزجاج بناء على طلبي،
ففي حياتي أنا غالباً
ما فكّرتُ بالآخرين.

ما الذي حصل معي بجريرة الآخرين،
ماذا بقي لي غيرَ معروفٍ بالنسبة لي عن الآخرين...

يستحيلُ تصوّر الكثير مما يمكن أن نتلذّذ به،
وربما أكثر، أيضاً، مما نرغب بالحديث عنه باختصار.

أنْ تنظرَ إلى الشجرة،
أنْ تتنعَّمَ بهذه الشجرة
وأن تهنأ بعملية الخلق ذاتها!
اسمعوا، من الأفضل لي أن أشرب كأسَ ماءٍ،
مِنْ أنْ أنظرَ إلى الشجرة،
ومن الأفضلِ أنْ أذهبَ إلى ملعبِ كرةِ القدم،
مِن أنْ أقفزَ في مسبح.

فالأحداثُ من الماضي
تسبِّبُ الألمَ في عينيَ.
والموتُ على الشجرة
يحرمني من اليقين.

أولئك الذين تذكّرتهم –
هم مجرّد وريقات رقيقة،
قِطَعٌ من اللحاء والأغصان الرطبة.
نساء ورجال، فتيات وفتيان،
هيئات بوجوهٍ مألوفةٍ وغيرِ مألوفة.

كما لو أني بالضبط أُخطأ في الخرائط الجغرافية،
في فهارس المحيطات،
في توصيف السموات المليئة بالنجوم...
كما لو أنَّ الآخرين يخطئون فيَّ أنا...

وأنتِ، أيتها السيِّدةُ بنمشِكِ الساحر،
وأنتِ ، أيتها السيدة بأقراطِكِ البرّاقة،
وأنتَ، أيها المنشدُ بأساطيرك المدهشة!

والديَ كانا راضيين عن كلِّ شيء.
كان لديهما أطفال وأخوة وأخوات وأصدقاء،
وكان لديهما النقود لممارسة هواياتهما.
ففي هذا الشهر اشتريا بطاقتيَن لحضور أوبرا،
وفي الشهر القادم اشتريا مصباحاً جديداً.
والداي كانا يستمتعان بجميعِ أيام الشهر،
لكني رأيتُ كيف إنَّ كَثرة العروض في واجهات المحال،
وفي الصحف وعلى الجدران،
جعلت خيارهما ضحلاً.

وكيف إنَّ لوحةَ تلك التفاهة
قد ساهمت في بلورتي
أكثر من الجمال الذي ورثتُه،

أكثر من الرعشة في يديَ،
أكثر من الملامات التي نالت مني.

الملامات التي كانت مُوجَّهةً إليَّ،
لم تطلْ، على الأرجح، آخرين.
فإذا ما اخترتَ السُرّة فلا بدَّ أن تخسرَ الظَّهر،
وإنَّ اختيارَ انحناءات الظهر
يَحرِمُكَ من الشفاه.

إنَّ الأشياءَ من هذا القبيل تتسرّبُ إلى نظرتي،
وتجعل كلامي مُعقَداً.

أي بنطلون أنت كنت سترغب به، يا سيد سكارْبا؟
هل سوف تأتي لأجل عصّارة الفواكه؟
أيها السيّد، أيها السيّد، أية امرأة تشتهي؟
الخرقاءَ أمِ الأكثرَ تهذيباً؟
تلك المدمنة على الترحال أم الأكثر وضوحاً؟
تلك، صاحبة البطن الأكثر إثارة جنسية، أم هذه،
صاحبة الظهر الأكثر إغراءً؟

شفتاي هي مثل شفتيك تماماً،
أنا واثق من ذلك، وبذلك أنا أفتخر.

عزيزي الغالي، أنتَ لن تقومَ باختيارِ المواد،
التي لا تكفي حتى لِدفعِ رُبع ثمن أتعاب العمال الأجانب!
تعال وانظر ماذا يمكننا وماذا يمكنني أن نقترح لك!
يا سيد سكاريا، هل أنت أحمر وأبيض؟

هل تفهم، يا تُرى، طبيعةَ ريبتي؟
حتمية الأحاديث
وسيارةَ سباقٍ على طريق زراعية؟

مع الشجرة يأتي الموت.
السؤال التالي – عن قيمة الأحياء.
آها، اختيارٌ وغِبطةٌ من عملية الاختيار!
حسناً، أنا أختار شيئاً ما
وعلى الفور أتخلّى عن شيء آخر ومن ثم أهلك حتى الموت
في مكان ما على طاولتي أو كرسيي أو سقفي.
لقد حسمتُ اختياري منذ زمن بعيد.
ولا أرغب بالاختيار أكثر.
جميع تصريحاتي – هي تعابير عن لا يقيني،
لا يقيني الذي يصرخ في داخلي وفيك منذ لحظة الولادة.
إليك جوهر القضية، أنا أتقيَّد بشكل أساسي بما هو قاس،
بينما الفلاح يكتفي بما هو مرن.
الحشرات تلتهم بعضها البعض، ونحن نلتهم الآخرين.

لقد تمكّنتُ من هضمك ولكن ليس حتى النهاية.

وتلك المرأة في حافلة الركاب أيضاً لم أهضمها بالكامل.

فقد سمعتُ كيف راحت تروي قصصاً

وهي تحمل طفلةً صغيرة على ذراعيها

وقد راحت تضحك لثنائيٍ،

سعيدٍ من اقتناء أزرار ومِلابس داخلية،

ثنائي راضٍ لأنَّ حياة المتاجر لا تمتُّ للأمر بصلة.

كنت أصغي إليهما،

وكان بودّي أن أقاطعَ المرأةَ،

إذ كنت أريد أن أطلب منها متابعة حديثها،

وهي تحدِّق فيَّ.

لأني كنت أصغي، ليأخذني الشيطان!

كانت تلك قصص

تبثُّ فيَ الذعرَ بطريقة هزلية،

وَتُخْمِدُهُ في ذات الوقت بشكل قسري.

كان ثمة عمقٌ في وجه المرأة،

وقد كانت نظرتها تزيد من وضوحه.

لقد كانت تروي عن حياتها وعن الإهانات التي لَحِقت بها.

كانت تروي بنبرةِ القادر على رؤية كلِّ شيء، ولكن لا يستنكر،

بنبرة ذاك الذي يراقب ويوصِّف

الأشياءَ النابذةَ والأشياء الجميلة،
دون أنْ يختارَ شيئاً.

تلك المرأة كانت تخترقني مثل دبّابة!

لم أنجحْ في إشاحةِ النظر عنها،
بالرغم من أنَّ دماغي أعطى أمراً صريحاً بذلك.

بالمناسبة، لديَّ تحصيلٌ علميٌّ مُعتبَر،
وقد اكتسبتُ خبرتي بالممارسة،
وأنا أنفِّذ الطلبات بنزاهة،
كما إني قادرٌ – وأنا أقول ذلك بعيداً عن المشاعر تماماً –
على المناورة بين حواجز الزمن.
وأنا لا أنسبُ لنفسي مواصفات أخرى.

كلا، لعلّي نسيتُ فنَّ ارتكاب الخطأ.

أو لا، كان يجب عليَ أن أذكر ذلك بطريقة ما...

مثلما أنَّ عدم يقيني لا ينبع من الاختيار
أو استحالة الاختيار، حين يكون ضرورياً أن نختار بكل بساطة،
بل على الأرجح، بسبب نَقْصٍ في الجدارة.

كم أنا لا أرغب بأنْ أقفَ خلف الطاولة،

كم لا أرغب بأن أقف إلى جانب الطاولة!

وكم لا أريد أن أقف أمامَ الطاولة

وكم لا أريد أن أقف فوق الطاولة!

يجب عليَ أن أشارك، فأنا أشعر بالضرورة...

كم أنا لا أودُّ أن أبتكرَ الخلود،

وكم أنا لا أرغب باختراع تلك الحمامة التي تجلس في تلك الطاولة!"

"بالنسبة لعالم الرياضيات
نحن، ربما – أربع معادلات،
وبالنسبة للممثِّل الهزلي –
نحن، على الأكثر، مجرد دُعابتيَن،
وبالنسبة لتاجر السيارات،
نحن – غيابٌ للدعاية.

الألماسُ جميلٌ في يَدِ الأمير
بنفس درجةِ جمالِهِ في عنق الأميرة.
مَن يظنُّ أنه يستطيع الالتفافَ حول هذه الحقيقة،
وهو يشير إلى أحجارٍ ثمينة أخرى،
فهو لا يعرف القوّةَ الجامحة للريح.
مَن يعتقد أنَّ سعادةَ المصابِ بالروبصةِ –
أكثر صدقاً من غبطة المحبِّ للشمس،
فهو غير مُطلعٍ على التمتّع بما هو غير ظريف.
أنت، يا سكارْبا، تبذِّر مواهبك،
وأما ما تدّعيه من شكوك
فإنها تذكّرني بالعصافير الصغيرة وهي تزقزق.

أنا أفضّل الأمراء والأميرات،
أنا أفضلِّ الكائنات الغريبة والحزينة،
التي لا تعرف حتى أنها ليست كائنات بشرية،
وإنمّا مُجرَّد طعام يومي ووحل يومي.
نعم، الأمر هكذا، ولذا فإني أغنّي عمّا هم يعانون،
سواء كان صغيراً أم عظيماً، يقطع نياطَ القلب أو مكتوماً،
نعم، الأمر هو كذلك، وهذا هو خياري منذ تلك اللحظة،
التي مددتُ فيها بوزي الشفوقَ في هذا العالم،
هكذا وليس العكس، وسوف يكون الأمر ظريفاً،
كما أنا آملُ.

إذا ما دُعِيَ الفيلُ بالداهية،
فسوف أبدأ أنا بالغناء بكلِّ سرور.
فَمِن فَمِ الحكيم يخرجُ أيضاً الضباب.

وأنا على العموم، أحبُّ الضبابَ،
لكن ضبابَ الحكيم يخفي الغرورَ بالنفس.
الحِكمةُ تتعلق بالمزاج، وبالنوم،
وبالنقود، وأن تقول أشياءً حكيمةً
ليس سوى أن تعرفها بمنتهى الدقّة.

ربما يجب علينا أن نقتدي بالحيوانات؟
أوه، كم أودُّ أن آكلَ! ولكن ابني الأصغر «زاخين» هناك!
إنه لذيذ جداً! من الضروري أن تُترك ساقٌ للخال فينكاتساي!
هكذا تابِعوا، وطوِّروا حاسّةَ الشمِّ
فهي تسمح للجارِ فايريندير أنْ يُمارسَ الصيدَ
بنجاحٍ حتى في أكثر الليالي حلكةً.

المطر الذهبي(١)، النبات الخالد، زنبق سلالة تامبلير(٢)،
والسرخس الفضـي،
ربما، يجب علينا أن نتحوَّل إلى نباتات؟
أن يصبح الواحد منا يتوعاً(٣) في بستان، أو قرنفلة(٤) أو "قدم الإوزّة"،
أو نبات القمر؟
هذا ما يفعله الموتى من الجنود.

فما الذي تريده إذن؟ وما الذي تريدونه أنتم؟

---

(١) المطر الذهبي – تسمية شعبية للشجيرات من فصيلة Laburnum anagyroides اللاتي تغطيها في فصل الربيع أزهار صفراء اللون.(أي بكلمة أخرى الصفصاف...)

(٢) زنبق تامبليير (وهو أيضاً زنبق الأزتيك وزنبق النبي يعقوب) تسمية لنبات Sprekelia – زهرة ناعمة مخملية بلون أحمر قاني...

(٣) يتوع – نوع من النباتات التي تنمو في الحاكورات والبساتين...

(٤) Aira careophyllea – نبات موسمي ينمو على سفوح التلال الرملية وبالقرب من شواطئ البحار وضفاف الأنهار في القسم الغربي الأطلسي من أوروبا الجنوبية وأيضاً في منطقة القرم وفي القسم الغربي من روسيا الأوروبية...

أنْ أنسى أنَّ البشرَ مكّارون؟
لكن هذا ليس بالأمر الصائبِ جداً، يا أيها المُنشد المحترم،
أنْ نخوضَ في مثل هكذا أحاديث... بالضبط،
هكذا تماماً، أنا أعترف بأنَّ ذلك دقيق للغاية،
وأنا أرغب بأنْ أقتربَ أكثر من المبالغات!

يقينيات في الغيوم، كُفَّ عن ذلك،
مع أني، أيتها السيدة صاحبة الأقراط،
سوف أنوِّه بصدقك عرَضاً.
الأمير – هو تطرّف،
مثلما هي الأميرة التي يحبُّها بولهٍ وبإخلاص.
وحدهم المخادعون خالدون!

بما أنه يجب أن أكون متواضعاً،
فأنا أتغنّى بالأشياء،
التي تلبي رغبتي نوعاً ما.
وأنا أقترب من المبالغات الراكلة والمُحفّزة،
والتي تُغرِق في عماءٍ مطلق.
هذه هي مهمتي منذ اليوم الأول.

كم رائعٌ أنْ نُراقبَ حركةَ اليَدِ
ورائعٌ أيضاً أن ننسى سكينتها.

الأمير يتذكّر حلمَه
على شكلِ أميرةٍ في المستقبل.

الحياةُ مُحاطةٌ بالألماس.

أن تُنشِدَ حتى حدود ما هو موجود...

لِعِلْمِك، أنا أجمعُ الأزهارَ ومن ثم أمتِّع نظري بها
طمعاً بزرقتها المزعومة، أو بلونها البرتقالي أو البنفسجي المزعوم.
فالدموع في أعين الفتيان والصبايا
تبدو أحياناً زرقاء أو برتقالية أو بنفسجية...

لكني أغنّي عن أشياء محدّدة فقط.
سعادتي – بسيطة،
لأنها موروثة وعلى نحوٍ غير مباشر،
وهي ليست لا سعادتك ولا سعادتي.
فالأمانة المطلوبة من قبل أرباب العمل
بسيطة بنفس درجة بساطة سعادتي.

هل تُعتبَر المعاهدةُ بين الشمس والقمر
اتفاقيةً بين النهار والليل؟
حتى إني بكلِّ بساطةٍ لا أعرف كيف أجيب على هذا السؤال.
الالتزام بالمبادئ – هو الوضوح الأكثر صعقاً!

كلا، أنا لا أحصي الأحداث أو قصص الغرام
وأنا جالسٌ على ضفّة بحيرة،
كما إني لا أحصي كم
من الأسماك الرائعة تنتعش للهواء.

كلا، أنا لا أفهم
أبطال المسرحيات الدرامية والكوميدية،
لا أعرف، إذ من الصعب
أنْ أُقَارَن مع مهارة
صائغي الفضة والذهب
والعاملين في صقْلِ الألماس.
أن أفكِّر بتصرفاتهم، هكذا في حقيقة الأمر،
وأن أفكِّر بثيابهم، عبثاً،
وأن أفكِّر بأرواحهم، هكذا واقعياً...

أن أفكِّر بأننا، بلا ريب،
أطفالٌ بالنسبة للزمن،
تعرّضوا لعاصفة شديدة،
أطفالٌ عاجزون بالرغم من كلِّ مباهاتنا،
وأننا بالنسبة للعالم مجرّد
غنيمة مَلقيةٍ في الشارع بشكل عابر...

إنَّ مثل هذه الأفكار – بستانٌ للمبالغات.
فما هو غامضٌ يكون محلَّ ثقةٍ،
مثلما هو الدرابزين الذي أستند عليه حين أصعد إلى الأعلى.

فقط لو أن الكلب يعرِّج الآن...
هذه الأمنية تُسعدني كما وتهدّئني أيضاً.
فالكلبُ بقائمتَيه الوبريتيَن
يقتربُ من التطرّف.

أعضاء الحسِّ والشهوة

"على شاطئ البحر أشتهي أجملَ ما يمكن،
على شاطئ البحر أرغبُ بما هو أكثر تسلية.

لأنَّ الرغبةَ على الشاطئ لا يمكن
أن تُقارَن بأيِّ شيءٍ وتكون عاريةً تماماً.

ها – ها – ها! على الشاطئ –
البحر بحدِّ ذاته - رغبة!

إني أرى، ربما، قارباً،
وقد يكون هذا القارب فارغاً.

قد يكون هذا القارب بلا صوت،
وربما... أنا أودُّ كثيراً أن أرى ذلك القارب،

لأنه يمكن مقارنةُ القارب بالحرية،
انظر، ها هو البحر يقترب أكثر فأكثر.

مع أنَّ مياه البحر تبقى هناك حيث كانت.
فالقارب يَعبر طوال الوقت مياهً مختلفة.

مما لا شك فيه أنَّ القاربَ بحاجة للرومانسية،
فهو يبحث عن منابعِ التفاهم،

يبحث... وأنا أرى هناك في البعيد
شيئاً ما آخر، أشبهَ بالطير،

هناك، حيث لا يعود البحر يسمح بالرؤية أكثر،
لعلَّ القارب سيقترب أكثر.

ننحن نتعلّم من البحر أجمل الأشياء،
نحن نتعلّم من البحر أكثرَ الأشياءِ تسليةً،

أنا أريد أن أبقى هنا حتى حلول المساء.
ثمة موجة من جديد، تليها أخرى، هيا اِصغِ!

كما لو أني أسمع ما يقوله الرجال في ذلك القارب!
إنهم يتخاصمون، على الأغلب، بشأن المسار.

أو بخصوص أيٍّ واحدٍ منهم يملك أكبرَ عضوٍ، ها – ها!
أو بخصوص الضجيج في الغيوم.

لا يمكن سماعَ شيءٍ سوى تلفيقات،
إنها أسطرٌ بارعةٌ لا تزعم أنها تنطوي على الدقّةَ.

أودُّ لو أنَّ البحرَ يقترب أكثر.
أشعر بالبرد حيناً وبالدفء حيناً.

أن تفكِّر بالبحر، بالأعماق هناك في البعيد
وبالناس الذين يهوون الأعماق.

لقد انكمشتِ الأفكارُ،
وراح الحبُّ يحلِّق إلى ما لا نهاية،

مثل جسد جسور.
أنا أؤمن بأنَّ الطيور لا تكترث بالقارب،
هناك، في البعيد، أنا أريد
أن أصعد إلى سطح القارب

وأنتظر ريثما تأتي الطيور.
بالرغم من أنَّ أعضاء الحسِّ عندي تسبِّبُ القلقَ لي،

لكني ألاحظ أنني أكاد لا أشعر بهذا الإزعاج،
ربما، لأنَّ الهواءَ المالحَ يجعلني أثملُ.

كلا، إنَّ الكلمات التي تستحثّها الريحُ،
تتزحلق على جِلْدِك، مُقلِّدةً البحر،

هيا، هاتِ يدَك. فالبحر يُنشِد أنَّ بإمكاننا
أن نرى فقط أسماكاً بديعةً ورغبات رائعة.

الأسماكُ البهيّةُ تَجلبُ البرودةَ،
أواه، انظر كيف إنَّ الطير ينشر السربنتين(١) في السماء.

أنا أريد أن أنتظر هنا إلى أنْ يتبخرَ البحرُ،
أنا أشتهي الرجالَ الذين تفوح منهم رائحةٌ مذهلة.

أودُّ أن يقتربوا وأنْ يدلّلوني،
طالما أنَّ القاربَ سوف يصبح أكبرَ وأكبر وأكثر شفافية.

بيدَ أنَّ ذلك الطير... رغباتي الفريدة جداً،
الجامحة جداً، لا تستطيع أن تجد منفذاً لها إلى الخارج.

أغلق عينيَّ، وفي أثناء ذلك أتخيّل وأتخيَّل
جميع الأجرام السماوية التي تلعب لعبة التخفّي(٢)،

---

(١) الشريط الملّون - المترجم
(٢) الطمّيمة - المترجم

فأنتم تعرفون أنَّ الكلمةَ – أداةٌ،
وأنه يجب أن ننسبَ الفمَ إلى أعضاء الحس الفضية،

وأنَّ ذلك القارب يسبح في عالم واقعي آخر،
مختلفٍ عن واقعنا؟ أنا أقف، أتطلع وأتنشق بقع الضوء.

وعند الشاطئ يشتاق البحر إلي، وعند جميع صديقاتي،
اللواتي تنعكس روح الأمواج في عيونهن،

بالمناسبة، ما هي الأصوات التي يتكوَّن منها الصوت،
وكم سوف أستطيع أن أسمع من بينها. هنا، على الشاطئ،
قد يكون كل سؤال هو الأكثر أهمية.
أسأل نفسي، كم طويلاً يجب عليَ أن أنظر
لكي أرى حشرة،

وهل ستتمكن عيناي يوماً ما من نسيان ذلك القارب.
على الشاطئ تتعامل مع الغِنى ومع الفقر، بلا شك،

كما لو مع أشياء. وأنا أتعطش بقوَة للأشياء،
كما إني أشتهي اقتناءَ الأشياء،

أنْ أمتلكها وأنْ أُطلقَ سراحَها!
هيا، اسمعْ كيف تصدر الأوامر في القارب،
وكيف تصلُّ السلاسل وكيف تسقط على القاع!

هناك يغنّون من الضجر أغنيةً
عن الحمولة المجيدة التي سوف تَفْسُدُ،

آخ-آخ-آخ، وعن الفتحات التي سوف تتسِخُ،
وكيف إنَّ الباحثين المسرعين إلى جزرٍ غيرِ مأهولة

في بدلات الغطس مع اسطوانات الهواء،
لن يشاهدوا الأعلامَ، هكذا بالضبط.

أنا أتمنى أن يستمرَّ البحرُ في وجوده. هذا ليس خطيراً،
ليس رهيباً. أن تُحِبَّ البحرَ، الماءَ،
البحر والماء، البحر، الماء،
كم أريد أن أُحبَّ البحرَ، هكذا، من دون أعضاء الحس،

أودُّ أن ينشدوني أغنيةً، أن أحبَّ البحرَ،
ولكن في البداية أريد أن أحبَّ البحرَ.هاهاهااااههه،

هاههها اااااههههااهه، ما لهذا الصخب الجهنمي!
الرغبات – هي رجال وفئران!

أنا أريد أن أشاهد استرقاقاً، وسطوةً قادمةً،
ليلةً تقترب، ليلاً مع جميع قرون استشعاره،

أنا أريد أن أرى كيف تتلألأ الأسماك في العتمة،
الحالكة مثل رغبات تتلمّس الأطراف،

أنا أريد أنْ يكونَ البحرُ أبدياً، بداية خالدةً،
أنا أريد أن يقتربَ القاربُ أكثرَ وبهدوء،

بصمتٍ. شارداً كما الهواء والأضواء.
أيكون واجباً، إذن، على الشاطئ أن نهزَّ رأسنا باحترام؟

أنْ نحترمَ العالم الذي خلقه اللهُ بأكمله؟
ولا تتوهمّوا ذلك! أنا أريد أنْ أقفَ على الشاطئ!

وبسبب حتمية الفراق يتضاءل القارب،
يتضاءل، كجواب على الإنذار،

يا له من غياب للحدود، يا لها من رتابة،
أنا أريد تسمية أخرى لما أقوم باختباره.

تسمية أشبه بالقارب وهو بعيد عن الشاطئ،
تسمية موجودة في واقع ثلاثي الأبعاد.

حتى إني لا أحتاج لمصادر الفهم،
فأنا أرغب بصديقتي تلك وحدها،

تلك الفتاة التي تمارس الحبَّ بصخب شديد،
إذ أنها تعاني من ضعفٍ تجاه الأصداف والنجوم،

تعالي إليَّ، حبيبتي. فنوايا ذلك القارب
ليست واضحة بالنسبة لي، وربما تحدث هناك مهاترة

بسبب "الأرانب"، وبسبب تنفيذ بعض الأوامر،
أو من أجل امرأة. بالفعل، القارب يسير ذهاباً وإياباً،

ذهاباً وإياباً، كما لو أنه يبحث عن شيءٍ ما،
كما لو أنه ريح بالضبط تهمس للرجال،

تماماً... بل كلا، فأنا بدأتُ أفهم ماذا أرى،
أنا أرى قليلاً جداً من الطيور الاحتفالية،

كما وأرى اقتحام اللون الأزرق والرمادي.
نعم، للأشياء على الشاطئ أسماء جميلة،

وهي تطالب بتجديدٍ متواصلٍ
للأسماء، لترميم الرغبات، آها...

هذا القارب يشبه حيواناً جائعاً،
مع أني لا أؤمن بما هو طبيعي.

غالبيةُ الطيور تُقيمُ مهرجاناتِها
خارج المجال بالنسبة لأعضاء الحس المُفرِطة عندنا،

في الجانب الداخلي للأمواج، تحت الماء،
بالقرب من الجزيئات الشفافة للضوء، وقد استقرّت في سترتنا.

أنا أريد أن يفقدَ القاربُ المرساةَ،
أريد أن أرى كيف إنَّ الغموضَ يتسكع في لغتنا،

كما أريد أن أعرفَ لماذا يكون ذلك الطير الفريد – وحيداً.
إنها أغنية شيّقة، فهيا كفَّ عن أحلامك المستحوذة،

هيا قلْ لنا أنَّ هذا الطير ليس وحيداً!
فأنا أرى البحرَ، والطير، والقارب والسماء،

التي تكاد أن ترفع الراية بين لحظة وأخرى،
سمكة نائمة، سمكة ملتفّةً، سمكة رهيبةً، سمكة من زبد

وأيضاً أسماكاً تغنّي وأخرى ترقص!
القارب يتجه نحونا، القارب يقترب أكثر،

القارب يقترب، متأرجحاً، من عالمنا،
أنا أريد أنْ يستلَّ الظلام أصفادَه،

فقريباً سوف يخرقُ القاربُ سكينةَ الأرواح!
ثمة ألم شديد في الكتفين وفي اليدين،

أنا أشتهي الرجلَ الذي سوف يحبّني على السلّم.
أشتهي رجلاً سَبَقَ وزارَ قاعَ البحر،

أريد الرجلَ الذي سوف يغرز أظافرَهُ في بطني...
اقترانُ الماءِ والسماء يثيرُ الرعبَ بهدوء،

أريجُ الموت يخترقُ اللحظة الراهنة،
والقاربُ يريد أنْ يندفعَ مُبتعداً،
اسمعوا إنهم يصرخون "هيا ليصعد الجميع إلى الأعلى"،

وأنا لا أشعر بالحاجة لأن أستنهضَ البحر،
أن أجذبه إلى نفسي وأن أسكبه على نفسي.

أنا أريد أن أغنّي ببرود وبطريقة مؤثّرةٍ، بشكل قريب للأزرق والرمادي،
إني أغنّي بشكل أصفر وأخضر، ببرود وبطريقة مؤثّرة.

أنْ أتلمّس حاسّةَ النظر، أن أرى حاسةَ الشمِّ، أن أشمَّ حاسة اللمس
وأنْ أنسى ما يتعلق بالطيران العشوائي لمختلف الجماعات.

أنا أريد أن يُقدِّمَ ذلك الطيرُ نفسَه لنا،
أريد أن يكون لديه شركاء

من الأشياء، من اللغة ومن طيور أُخرى غير مفهومة.
فعلى الشاطئ الآخر يقوم ذلك العالم ذاته.

ياه، أنا لم أعدْ أرى القارب! بينما الطير يحلِّق أعلى وأعلى!
وأما الرجال في القارب فقد أُنهِكوا من الأرق

ومن العمل الشاق، من دون دقيقة للراحة،
وكلُّ شتيمة أكثر لِذَّةً من الأخرى.

فهيا تنشّقوا رائحةَ الآلات المُشتغلة،
فالرجال لم يعودوا يشعرون بالشهوة،

آخخخ، الرجل الذي يعرف ويفهم ماذا يريد،
الرجل الذي يبصق في البعيد بلا اكتراث،

وهو يقبض عليَّ من قدميَّ، يخضعني لنفسه ويحررني،
الرجل... وعلى الشاطئ تكون الكلمات

لا كمثل الغرقى، أو مثل رفات نهار،

وإنما كعلامات على حياة مظلمة.

ها هو القارب من جديد، هُناك، ثمة اهتزاز... –
ردٌّ فعلٍ على الأغاني من الأعماق!

كما لو أني أُعلِّم البحرّ أن يغنّي باستمرار!
هذا غير معقول، هذا مستحيل.

هاهاهاها، نعم نعم نعم، أنا أريد أن أغنّي، كما البحر،
وأن أزيِّنَ المياهَ عديمة الإرادة بيديَّ.

وأنْ أجعلَ الأصوات تتوالد في صدري...
فأنا بدأتُ أُدركُ القارب أكثر فأكثر تماماً كقارب،

والطيرَ، كطير بلا ريش،
هيا اقتربْ أكثر، أيها الطير، وأنا سوف أصمت،

دعْنا نرى كيف إنك تُزيِّن السماءَ،
وقل لنا بأيِّ اسمٍ يناديك البحر.

إني أشعر كيف إنَّ الماء يجرُّ خلفه الماءَ،
وكيف إنَّ الضباب المالح يعضُّ رقبتي بكلِّ لطف،

أنا أريد أنْ أمنحَ نفسي للظلام...
لكي تلتهم كلماتُه كلماتي!

إني أسمع أصواتَ ثروةٍ هائلةٍ فقط،
أصواتَ أشياءٍ ثمينة، أنيقة وهشّة،

أشياء لا ترغب بأن تَفهم شيئاً البتة،
أنا أسمع شتائمَ في القارب وفي قلبي.

للبحر آلاف الأسماء على امتداد الشاطئ،
للبحر على طول الشاطئ آلاف الأسماء،

أنا أودّ أن أنتظرَ ريثما يبدأ البحرُ بتصريف أسمائه!
ومن ثم أشمُّ، ثم أنظر، ولاحقاً ألتقي الليل...

إحدى أُذُنيَّ – هي استمرار لأصابعي،
والأذن الثانية تتعطش لملامسة شفتيك.

يتحتمُّ على الطير أن يعاني أكثر من القارب،
لكن بقعَ الضوء الشفافة غامضة جدّاً بالنسبة لهؤلاء الرجال،

أنا أودُّ أنْ أقفَ على شاطئ البحر وأن أكتسب أعضاءَ الحسِّ.
أريد أن أقفَ على الشاطئ وأن أعرفَ جميعَ الكلمات.

أن أقف على الشاطئ ولا أستسلمَ.
أنا أريد أن أقفَ على شاطئ البحر
وأن أغنّي بجسدي".

فهرس

الصفحة

إبراهيم محمود إستنبولي

إبراهيم محمود إستنبولي مواليد ١٩٥٧م.

طبيب اختصاصي بالأمراض العصبية والنفسية.

كاتب ومترجم... يعيش ويعمل في سوريا.

صدر له:

١- الانفعالات السلبية في حياتنا اليومية. سلسلة الصحة النفسية للجميع. دار أرواد بطرطوس ١٩٩٩م.

٢- رسول حمزاتوف: دستور الجبال وروايات شعرية. ترجمة عن الروسية. دار قرطاج بطرطوس ٢٠٠٤م.

٣- حضرة عنايت خان: تعاليم المتصوفين. ترجمة عن الروسية. دار الفرقد بدمشق ٢٠٠٦م.

٤- فلاديمير ليفي. رحلة صيد وراء الفكرة. علم نفس. ترجمة عن الروسية . دار الفرقد بدمشق ٢٠٠٧م.

٥- يوري دميترييف. ثلاث عشرة قطة سوداء. ترجمة عن الروسية. دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٨م.

٦- فسيفولد أفتشينّيكوف. الرماد الحار . ترجمة عن الروسية. الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة ٢٠٠٩م.

٧- رسول حمزاتوف- مختارت شعرية. ترجمة وإعداد عن الروسية. الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٠م.

٨- «أن تختار القمر» – قراءات & دراسات في الأدب الروسي. دار أرواد بطرطوس ٢٠١١م.

٩- «كبرياء جريح» قصائد مختارة للشاعرة الروسية مارينا تسفيتاييفا. صدرت عن دار الصدى ٢٠١٣م... تمَّ توزيع الديوان مع مجلة «دبي الثقافية» مجاناً.

١٠- «علم الصراع» – مجموعة من الباحثين. ترجمة عن الروسية... صدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ٢٠١٤م.

١١- «رسول حمزاتوف – الشاعر الإنسان» – بمناسبة الذكرى التسعين لميلاده والعاشرة لرحيله... إعداد وترجمة إبراهيم إستنبولي. صدر عن دار علاء الدين للطباعة والنشر بدمشق ٢٠١٤م.

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م

كلمة الغلاف

هذا النص مخصص للنشر على الصفحة الأخيرة من غلاف الكتاب

سلم سكاربا... قصائد من هولندا... من بلد السلالم والأدراج والثلج وزحمة الناس والأفكار والعتبات والنوافذ المتلاصقة بالسرّ والهمس الشفيف.

السلّم – مكان اللقاءات والتصادمات، التعارف والذكريات، مكان للحبِّ والموت من منظور أبطال الشاعر الهولندي آريين داينكر. ففي هولندا، التي تُعتبر الأعلى من بين البلدان الأوروبية من حيث كثافة السكان، لن يكون غريبًا أن نرى كيف إنَّ السلّم في البيوت يلعب دور الجسر بين فوق وتحت.

وقد قام المهندس المعماري الإيطالي كارلو سكارْبا بتصميم سلّم فائق الروعة يتناغم بصورة عضوية مع المظهر الداخلي التاريخي للقصر الموجود في متحف كاستلفيكّو في مدينة فيرونا؛ ولقد أثار تصميم هذا السلّم مشاعر آريين داينكر الذي أعتاد منذ الطفولة على رؤية السلالم.

ولعل هذه العوامل الثلاثة هي التي حسمت مكان اللقاء بين الإلهام والشاعر...

إنه السلّم يغنّي منذ الأزل.

إنه السلّم يغنّي مثل البشر الذين لم يتعلموا الغناء،

إنه السلّم يغنّي مثل شجرة لا تكاد تملك ظلاً،

إنه السلّم يغنّي مثل رحّالة يجلس دائماً في البيت.

هذا السلّم هو العالم... أو إنَّ العالم – هو السلّم... نحن نقف على درجات مختلفة، نصعد ونهبط، نتحدّث ونصغي ونعيد... هكذا هي الحياة... هكذا هي اللعبة.